ردمد: ٧١٨٩ - ١٦٥٢ ردمد (النشر الإلكتروني): ٧٤٧٢ – ١٦٥٢ العدد الثامن والعشرون ... محرم ١٤٤٣هـ - سبتمبر ٢٠٢١م

مجلة جامعة الباحة

للعلوم الإنسانية

دورية - علمية - محكمة

مجلة علمية تصدر عن جامعة الباحة

البريد الإلكتروني: buj@bu.edu.sa الموقع الإلكتروني: https://portal.bu.edu.sa/ar/web/bujhs

مجلة جامعة الباحة للعلوم الإنسانية

العدد الثامن والعشرون ... محرم ١٤٤٣هـ - سبتمبر ٢٠٢١م ردمد: ٧١٨٩ - ١٦٥٢ ردمد (النشر الإلكتروني): ٧٤٧٢ - ١٦٥٢

المحتويات

التعريف بالمجلة .....

الهيئة الاستشارية لمجلة جامعة الباحة للعلوم الإنسانية .....

المحتويات.....

مرويات الأحنف بن قيس المرفوعة: دراسة حديثية 1

د. محمد بن حسن بن زاهر الشهري

أقوال الحافظ يحيى بن محمد بن صاعد في الجرح والتعديل: دراسة مقارنة..... 52

د. عيد بن محمد بن حمد الدوسري

تحقيق كتاب: (معتقد الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي لصدر الدين أبي الوفاء سليمان بن يوسف الياسوفي، الدمشقي، الشافعي 789هـ) 73

د. طارق بن سعيد بن عبد الله القحطاني

المسائل العقدية المتعلقة بجائحة كورونا..... 122

د. نادر بن بهار متعب العتيبي

الدلائل العقدية في الأسماء الثابتة للنبي صلى الله عليه وسلم..... 156

د. يوسف بن محمد المحمادي

أحكام الجراد في الفقه الإسلامي: دراسة فقهية مقارنة..... 187

د. عبدالله بن عايض بن عبدالهادي أل عبدالهادي

الإجراءات الوقائية لفيروس كورونا (كوفيد 19) من المنظور الشرعي والطبي..... 216

د. عيد بن محمد بن حمد الدوسري

المكروه الصرفي في كتاب سيبويه: الجمع أنموذجًا..... 238

د. منيرة بنت ناصر بن زايد الغامدي

أثر النية في التوجيه النحوي عند الفراء (ت206هـ)..... 272

د. سلطانة بنت محمد بن مشبب أل صالح الشهراني

ما رده الزجاج إلى كلام العرب من (المسائل النحوية) في كتابه معاني القرآن وإعرابه 323

د. عبدالرحمن عثمان محمد اليتيمي

البكاء وأثره في شعر البحتري: دراسة تحليلية فنية..... 369

د. زياد بن علي بن حامد الحارثي

القناع في الشعر السعودي دراسة تحليلية نصيّة لنماذج مختارة..... 407

د. حمدان محسن الحارثي

تقنيات الحِجاج في خطاب عمر بن عبد العزيز: دراسة نصية تداولية..... 429

د. وليد بن عبد الله بن مسفر الدوسري

كلام "أبـي عبيـدة بن الجراح" (رضي الله عنه): دراسة بلاغية..... 463

د. معوض محمد علي الخولي

الدور المأمول من مدارس التعليم العام لتعزيز القيم الإسلامية والهوية الوطنية لدى الطلبة في ضوء رؤية المملكة العربية السعودية 2030 527

د. عادل بن مشعل عزيز الغامدي ..... أ. نوال بنت عوض الهلالي

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم

جامعة الباحة

وكالة الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي

مجلة جامعة الباحة للعلوم الإنسانية

تصدر عن جامعة الباحة

مجلة دورية ـــ علمية ـــ محكمة

الرؤيـــة: أن تكون مجلة علمية تتميز بنشر البحوث العلمية التي تخدم أهداف التنمية الشاملة بالمملكة العربية السعودية وتسهم في تنمية القدرات البحثية لأعضاء هيئة التدريس ومن في حكمهم داخل الجامعة وخارجها.

الرسالة: تفعيل دور الجامعة في الارتقاء بمستوى الأداء البحثي لمنسوبيها بما يخدم أهداف الجامعة ويحقق أهداف التنمية المرجوة ويزيد من التفاعل البناء مع مؤسسات المجتمع المحلي والإقليمي والعالمي.

رئيس هيئة التحرير:

د. مكين بن حوفان القرني

مدير التحرير:

د. محمد عبد الكريم علي عطية

أعضاء هيئة التحرير:

د. سعيد بن أحمد عيدان الزهراني
أستاذ مشارك بقسم الدراسات الإسلامية
كلية العلوم والآداب بالمندق جامعة الباحة

د. عبد الله بن خميس العمري
أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية
كلية العلوم والآداب ببلجرشي جامعة الباحة

د. محمد بن حسن الشهري
أستاذ مشارك بقسم الدراسات الإسلامية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الباحة

د. خديجة بنت مقبول الزهراني
أستاذ مشارك بقسم الإدارة والتخطيط التربوي
كلية التربية جامعة الباحة

د. محمد بن عبد الكريم علي عطية
أستاذ مشارك بقسم الإدارة والتخطيط التربوي
كلية التربية جامعة الباحة

ردمد النشر الورقي: 7189 ـــ 1652

ردمد النشر الإلكتروني: 7472 ـــ 1658

رقم الإيداع: 1963 ـــ 1438

ص. ب: 1988

هاتف: 00966 17 7250341 / 00966 17 7274111

تحويلة: 1314

البريد الإلكتروني: buj@bu.edu.sa

الموقع الإلكتروني: https://portal.bu.edu.sa/ar/web/bujhs

مجلة جامعة الباحة
للعلوم الإنسانية

العدد الثامن والعشرون ... محرم ١٤٤٣هـ - سبتمبر ٢٠٢١م ردمد: ٧١٨٩ - ١٦٥٢ ردمد (النشر الإلكتروني): ٧٤٧٢ - ١٦٥٢

تابع المحتويات

أثر اختلاف نمط التعليم الطارئ عن بعد عبر نظام Blackboard في تحقيق نواتج تعلم مقرر تطبيقات التعلم الإلكتروني لدى عينة من طلاب كلية التربية بجامعة الباحة 566

د. عماد بن جمعان عبدالله الزهراني

واقعُ تطبيقِ الخطةِ الاستراتيجيّة لجامعةِ شقراء، ودرجة تحقيقها لأهدافِ برنامجِ التحول الوطني 2020 587

د. مطلق بن مُقعد بن مُطلق الروقي

الإسهام النسبي لكل من الرفاهية النفسية واليقظة الذهنية في التنبؤ بجودة الحياة في العمل المدرسي لدى المعلمين 625

د. أحمد بن محمد حسين الزيداني

اليقظة الاستراتيجية في ضوء تحليل (PESTEL) بجامعة أم القرى وعلاقتها بفعالية تدريب قياداتها الأكاديمية 682

د. منال عبد الرحمن سفر

درجة ممارسة أعضاء هيئة التدريس للأنشطة القائمة على أنماط الذكاءات المتعددة لدى طلبة التربية الفنية بجامعة الباحة 718

د. أحمد إبراهيم أحمد آل ساعد الغامدي

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم

جامعة الباحة

وكالة الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي

مجلة جامعة الباحة للعلوم الإنسانية

تصدر عن جامعة الباحة

مجلة دورية ـــ علمية ـــ محكمة

الرؤيـــة: أن تكون مجلة علمية تتميز بنشر البحوث العلمية التي تخدم أهداف التنمية الشاملة بالمملكة العربية السعودية وتسهم في تنمية القدرات البحثية لأعضاء هيئة التدريس ومن في حكمهم داخل الجامعة وخارجها.

الرسالة: تفعيل دور الجامعة في الارتقاء بمستوى الأداء البحثي لمنسوبيها بما يخدم أهداف الجامعة ويحقق أهداف التنمية المرجوة ويزيد من التفاعل البناء مع مؤسسات المجتمع المحلي والإقليمي والعالمي.

رئيس هيئة التحرير:

د. مكين بن حوفان القرني

مدير التحرير:

د. محمد عبد الكريم علي عطية

أعضاء هيئة التحرير:

د. سعيد بن أحمد عيدان الزهراني
أستاذ مشارك بقسم الدراسات الإسلامية
كلية العلوم والآداب بالمندق جامعة الباحة

د. عبد الله بن خميس العمري
أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية
كلية العلوم والآداب ببلجرشي جامعة الباحة

د. محمد بن حسن الشهري
أستاذ مشارك بقسم الدراسات الإسلامية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الباحة

د. خديجة بنت مقبول الزهراني
أستاذ مشارك بقسم الإدارة والتخطيط التربوي
كلية التربية جامعة الباحة

د. محمد بن عبد الكريم علي عطية
أستاذ مشارك بقسم الإدارة والتخطيط التربوي
كلية التربية جامعة الباحة

ردمد النشر الورقي: 7189 ـــ 1652

ردمد النشر الإلكتروني: 7472 ـــ 1658

رقم الإيداع: 1963 ـــ 1438

ص . ب: 1988

هاتف: 00966 17 7250341 / 00966 17 7274111

تحويلة: 1314

البريد الإلكتروني: buj@bu.edu.sa

الموقع الإلكتروني: https://portal.bu.edu.sa/ar/web/bujhs

كلام "أبي عبيدة بن الجراح" (رضي الله عنه): دراسة بلاغية

د. معوض محمد علي الخولي

الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة الباحة

الملخص:

فلا ريب أن بيان الصحابة الكملة – رضوان الله عليهم – يتبوأ الدرجة العلى والمنزلة الأسنى من البلاغة البشرية بعد بلاغة النبوة، ذلك أنهم خير من فقهوا عن الله ورسوله بيانهما، فجاء بيانهم رضي الله عنهم أكثر شبها ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع هذه المنزلة لبلاغتهم فقد شغلنا ببيان فقههم وجهادهم في نصرة دين الله وحراسة ثغوره عن بيانهم وسمت كلامهم، فجاءت أهمية هذه الدراسة من جهات عدة أولها : إحياؤها هذا اللون من الدرس البلاغي؛ ثانيها : كونها وفاء ببعض حقهم – رضي الله عنهم – على الأمة، فإن بيان الصحابة مما يجب أن يشيع في الأمة، فتتربى عليه قادة ورعية، إن أرادت لنفسها عزا وتمكينا ، ثالث أهميتها :كون هذه الدراسة(بحثا متواصلا في سرائر أُغلقت عليها صدور أصحابها أو قائليها وطويت معهم طيا وذهبت حيث ذهبوا بلا أمل لأحد بعد ذهاب أشباحهم في لقاء أو سماع أو سؤال)، الأمر الذي يستلزم حمل كلامهم وفهمه على الذي هو أهيأ والذي هو أكمل وأهدى ، خشية الكذب عليهم من حيث لا نقصد ، بتحميل كلامهم ما لا يحتمل أو ما لا يليق بمقامهم الرفيع، وقد اصطفت الدراسة المنهج التحليلي ، بعد تقسيمها النصوص إلى مقامات جمعت تحتها النظير إلى النظير ، فجاءت الدراسة في مقدمة وستة مباحث تنتظم ستة عشر تحليلا ، متلوة بخاتمة مذيلة بقائمة المصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: كلام؛ أبوعبيدة بن الجراح؛ دراسة بلاغية.

The words of "Abu Ubaidah bin Al-Jarrah" (May God be Pleased with him): A Rhetorical Study

Dr Moawad Mohamed Ali Al-Khouli

Assistant Professor, Department of Arabic Language

Faculty of Arts and Humanities at Al- Baha University

Abstract:

The companions - may God be pleased with them - has managed to attain the degree that comes second to that of prophets and that is better than a That of other human beings This is because they best understood, The jurisprudence of God and His Messenger, so their rhetoric , may God be pleased with them, came more closely similar to that of the Messenger of God, may God bless, With this state of their rhetoric, we were busier concentrating on their jurisprudence and jihad in supporting the religion of God and guarding its gaps more than our concentration on their rhetoric, The importance of this study came from several sides; First of which is: reviving and activating this kind of the rhetorical lesson, Second: Being grateful and faithful to some of whom has the right - may God be pleased with them - over the nation as the statement and clarification of the prophet's Companions that must be common in the Ummah, then leaders and common people must be brought up upon it if they want strength and empowerment to their Ummah upon other nations, Thirdly, its importance: The fact that this study was a continuous research for secrets in the pages that were closed with the death of their owners or authors without hope to anyone in a meeting, hearing or just asking a question, This thing that necessitates honest transmitting to their words with full and complete understanding lest lying to them unintentionally by giving their words unbearable or unworthy meaning which is not appropriate for high standing, The study consists of an introduction, six chapters that organize sixteen analyzes, a conclusion and a list of sources and references, and I supplicate to God to accept this humble effort and make it purely done for His sake and by which He may elevate us to the best position with our Prophet Muhammad - may God bless him and grant him peace - and his companions.

Keywords: Speech, Abu Ubaidah Ibn al-Jarrah, Rhetorical Study.

مقدمة:

المبحث الأول: مقام تزكية النفس: النص الأول

قال سليمان بن المغيرة قال: أخبرنا ثابت قال: قال أبو عبيدة وهو أمير على الشام: (يأيها الناس: إني امرؤ من قريش، وما منكم من أحمر ولا أسود يفضلني بتقوى، إلا وددت أني في مسلاخه) [١]، هذا النص مبين عما انطوت عليه شخصية أمين هذه الأمة – رضي الله عنه – من إنكار الذات وهضم النفس ومعرفتها حق المعرفة، والميزان بميزان القرآن.

فقد تولى أبو عبيدة حكم الشام وفتح الله به الفتوح، ودق بيده للحق والنصر رآيات، فذاع صيته ولمع نجمه فأكبره الناس، وأحبوا النظر إليه والتبرك به [٢].

فلما رأى ذلك – رضي الله عنه– منهم وهو البصير على نفسه، صعد المنبر فخطبهم: مستهلا كلامه بهذا النداء، لاستجماع انتباه المخاطبين، وضمان حسن التفاتهم إله، مؤثرا النداء بحرف "يا" وهي لنداء البعيد، والمخاطبون منه قريبون منزلة ومكانة، وذلك لتعظيم شأن ما يأتي بعد النداء من مضمون، فضلا عن كون "الياء" هي أسّ الباب في النداء.

ولا يبعد أن يكون استعمال الياء هنا على حقيقتها "نداء البعيد" خاصة وهو يخاطب الجموع الكاثرة من جنوده وعموم أهل الشام من حضور ذلك المشهد.

ثم يصدر كلامه بالتوكيد "إني" رغبة في تقرير المعنى، وتقويته في نفوس المخاطبين، وإن كانوا غير منكرين له.

وهذا منهج شائع في بيان الذكر الحكيم، ومنه – مثالا لا حصرا –قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ *وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الشعراء: ١٩١ – ١٩٢.

ثم يعبر بقوله "امرؤ" –وكان يمكن حذفها دون اختلال الكلام– والمراد بها: إنسان، والتعبير بها هنا خادم للمقام، لكون ظلالها يشيع الدخول في عموم الناس ونكران الذات وأنه لا يؤبه له.

ويلاحظ أن الجملة الثانية "وما منكم من أحمر ولا أسود" هي معقد المعنى، فلم مهد لها بالجملة الأولى "إني امرؤ من قريش"؟

أرى التمهيد بالجملة الأولى هنا قد جاءت للمبالغة في التأكيد على مضمون الجملة الثانية، فرغم أن الانتساب لقريش شرف ما بعده شرف في أذهان الغالب من الناس – وهو كذلك – إذا صاحبه عمل يرفع شأن

---

١) الطبقات الكبرى – ابن سعد .(ت: ٢٣٠هـ) الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠م تحقيق: محمد عبد القادر عطا –ر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع عام النشر: ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م تحقيق المحقق: عمرو بن غرامة العمروي ٤٨٢/٢٥

٢) مصنف ابن أبي شيبة (ت: ٢٣٥ هـ) مكتبة الرشد – ط. أولى ١٤٠٩هـ – ت: كمال الحوت–كتاب الزهد –كلام أبي عبيدة رضي الله عنه– باب ١٥

صاحبه، وإلا فمن أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبه، أقول: رغم شرف الانتساب إلى قريش، فإن أبا عبيدة ليطمع ويودُّ أن يكون في مسلاخ أي رجل يفضله بتقوى، أحمرا كان أو أَسودا!

وفي كلام أبي عبيدة هنا ضبط للميزان الحقيقي في التفاضل بين الناس، أعني تقريره ـ رضي الله عنه – لميزان القرآن ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات ١٣

فالجملة الأولى قد أدخلت الجملة الثانية في المعنى بقوة، وبدونها لجاء الكلام باردا بعيدا عن سمت كلام الأولين.

ويأتي ذكر كلمة "منكم" في قوله – رضي الله عنه – "وما منكم من أحد" فضلا عن تقديمها على متعلقها "يفضلني" وحقه التقديم، إذ الأصل: وما يفضلني منكم من أحمر... أقول جاء ذلك بغرض التخصيص ومزيد العناية بالمخاطبين وقصد توجيه الكلام لذواتهم، وربما كان ذلك لكونهم استقلوا أنفسهم إلى جنب أبي عبيدة، فأراد – رضي الله عنه – أن يرفع معنوياتهم، ويُعلي شأنهم ويستقلّ نفسه إلى جنبهم، فخصهم بكلامه.

وعليه فقد تقرر: أن نظم الكلام يستقيم بحذف كلمة " منكم " غير أنه بحذفها تفوت مزايا كثيرة كما رأينا.

ثم يأتي تعبيره – رضي الله عنه – بـ "من" الجارة في قوله "وما منكم من أحمر..." وكان يمكن الاستغناء عنها، فيقال "وما منكم أحمر ولا أسود"

أقول: أفاد التعبير بـ "من" الجارة هنا التنصيص على العموم والشمول وإفادة الحصر وتأكيد المعنى، وذلك لوقوعها في سياق النفي، وهو أسلوب مطرد في بيان القرآن الحكيم، انظر مثلا إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ هود ٦.

وجاء التعبير بالأحمر والأسود في قوله "وما منكم من أحمر ولا أسود" وهو نمط شائع في بيان النبوة، ومنه على سبيل المثال ما رواه جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى) [١].

وقوله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر رضي الله عنه (انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله) [٢].

---

١) مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ) نشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: ط أولى١٤٢١ هـ -٢٠٠١ م – تحقيق: شعيب الأرنؤوط -عادل مرشد، وآخرون إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي -باقي مسند الأنصار – رقمه ٢٢٣٩١

٢) مسند الإمام أحمد ٥/ ١٦١

وتأتي بلاغة التعبير بالأحمر والأسود هنا من كونهما كناية عن العجم والعرب، ودليله قوله صلى الله عليه وسلم "بُعثت إلى الأحمر والأسود"[١].

ويعلل الأزهري ذلك بقوله (والقول في الأسود والأحمر إنهما: الأسود والأبيض لأن هذين النعتين يعمان الآدميين جميعا، وكانت العرب تقول للعجم الذين يكون البياض غالبا على ألوانهم مثل: الروم والفرس ومن صاقبهم: إنهم الحمراء) [٢] وعليه فقد ذهب بعضهم إلى أن (المراد بالأحمر: الأبيض مطلقا) [٣].

هذا وقد جاء قوله ـ رضي الله عنه ـ "وما منكم من أحمر ولا أسود يفضلني بتقوى إلا وددت..." مبنيا على أسلوب القصر، والذي يقوم على ضغط جملتين، فتقوى عروة التوكيد في الكلام.

والتوكيد – الناشئ من القصر–هنا ناظر إلى حال المتكلم وإحساسه بالمعنى إحساسا قويا، ولما كان كذلك عبر عنه تعبيرا مؤكدا ومقررا.

ولا يمنع أن يكون التوكيد – الناشئ من القصر–هنا ناظر إلى حال المخاطبين، فقد أنزلهم –رضي الله عنه ـ منزلة المنكرين، وذلك لغرابة مضمون الكلام، ومخالفته المتوقع في أذهانهم، الأمر الذي احتيج معه إلى تأكيد الكلام وتقويته.

ولا يبعد أن يكون القصر هنا قد جاء لمحض التأكيد والتقرير، دون اعتبار –في المقام الأول –لحال المخاطب أو حال المتكلم.

واحتمال الكلام عدة أوجه مظهر من مظاهر ثرائه، واكتنازه بالأسرار.

ويؤثر رضي الله عنه طريق النفي والاستثناء دون غيره من طرق القصر، لكون الحال مثيرة للاستغراب والدهشة، وهي كذلك قوية الوقع على الأفهام، إذ كيف يتوقع من مثل أبي عبيدة وهو من هو: اسما ونسبا وهجرة وصحبة لرسول الله وسلم، وجهادا في رفع لواء الدين، ثم ما فتح الله له من ظفر على الأعداء.

أقول: كيف يتقبل عقل – بسهولة – أن صاحب هذا الإرث من الفخار يودّ أن يكون في مسلاخ من يفضله بتقوى كائنا من كان هذا الفاضل؟!

هذه دعوى غريبة، فاحتيج لها قوة في التأكيد، فاؤثر القصر بالنفي والاستثناء فضلا عن أن النفي والاستثناء أقوي طرق القصر وأصل بابه.

"إلا وددتُ أني في مسلاخه"

---

١) المستدرك على الصحيحين ـ النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ) نشر: دار الكتب العلمية –بيروت ـ ط أولى١٤١١ – ١٩٩٠ ـ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ـ كتاب التفسير، فتح الباري –الاستئذان، مسند أحمد ـ مسند الأنصار رضي الله عنهم.

٢) تهذيب اللغة –الأزهري (ت: ٣٧٠هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي –بيروت ـ ط: أولى٢٠٠١ م – ت: محمد عوض مرعب –مادة (حمر)

٣) لسان العرب –ابن منظور (ت: ٧١١هـ) نشر: دار صادر –بيروت ـ ط: الثالثة –١٤١٤ هـ – مادة (حمر)

المسلاخ هو: الجلد [١]، وعليه فأبو عبيدة لا يودّ أن يكون هو ذاك الفاضل بتقوى، بل يودّ أن يكون في جلده، فالتعبير أدخل في المعنى المراد، وهو مفعم بحرارة الرجاء وصدق الرغبة والودّ في تحقيق ذلك.

ثم لا يخفى ما أفاده التعبير بـ "في" الظرفية هنا، حيث أحالت جلد الفاضل بتقوى وعاءً ومستقرا يُضرب على الداخل فيه، فلا يُغادر منه شيء.

ساعده على ذلك أيضا التعبيرُ بـ "المسلاخ" هنا، وأصله: السلخ، ومنه "انسلاخ النهار من الليل" بمعنى: خروجه منه خروجا لا يبقى معه شيء من ضوئه، هذا عن معنى الانسلاخ منه.

وبمفهوم المخالفة فإن الانسلاخ فيه يفيد: الدخول دخولا كاملا، لا يبقى معه شيء خارجه، فسيدنا أبو عبيدة يودّ دخوله في جلد ذلكم الذي يفضله بتقوى، دخولا لا يبقى منه أثر لأبي عبيدة، وهذه مبالغة غاية في الروعة نهضت بالمعنى المراد، وكشفت عن صدق هذا الودّ، كما أفصحت عن مدى إنكاره – رضي الله عنه – لذاته الكريمة، وهضمه نفسه العالية، ولمثل هذا فليعمل العاملون.

بكل هذا تبين –بجلاء – مزية تعبيره –رضي الله عنه –بالكناية في قوله:"إلا وددت أن أكون في مسلاخه" دون قوله: "إلا وددت أن أكون أنا هو" مثلا

ومن يراجع البصر والتأمل كرتين بين التعبيرين يجد بينهما ما بين الخافقين شعورا.. وحيوية.. وحماسة.

وأرى في قول أبي عبيدة "إلا وددت أن أكون في مسلاخه" تأثرًا بقول أم المؤمنين: عائشة رضي الله عنها (ما رأيت امرأة أحب إلى أن أكون في مسلاخها من سودة) [٢] فهذا من ذاك.

مقام تزكية النفس:

النص الثاني: شدة خوف أبي عبيدة – رضي الله عنه – من الله تعالى:

عن قتادة قال: قال أبو عبيدة: (وددتُ أني كنت كبشا، فيذبحني أهلي، فيأكلون لحمي، ويحسون مرقي)[٣].

تأتي هذه الأمنية بالغة الغرابة من أبي عبيدة ـ رضي الله عنه – في مقام معرفة النفوس الزاكية بالله ـ جل جلاله، وخوفها من مقامه العليّ.

فلا غرو أن تأتي مثل هذه الأمنية الجارية على لاحب أهل الإحسان وسنن السابقين من مثل:

---

١) لسان العرب: سلخ والمراد به هنا: الطريقة والهدي. النهاية ٣٨٩/٢

٢) صحيح مسلم (ت: ٢٦١هـ) نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت – ت: محمد فؤاد عبد الباقي – كتاب الرضاع ـ باب جواز هبتها نوبتها لضرتها – حديث ١٤٦٣

٣) سير أعلام النبلاء – الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) نشر: دار الحديث–القاهرة الطبعة: ١٤٢٧هـ –٢٠٠٦م ـ الصحابة رضوان الله عليهم ـ أبو عبيدة ٥/١

ـ أمنية أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حين رأى طيرا واقعا على شجرة، فقال: "طوبى لك يا طير، والله لوددت أني كنت مثلك تقع على الشجرة وتأكل من الثمر ثم تطير وليس عليك حساب ولا عذاب والله لوددت أني كنت شجرة إلى جانب الطريق مر على جمل فأخذني فأدخلني فاه فلاكني ثم ازدردني ثم أخرجني بعرا ولم أكن بشرا) [١].

ـ أو أمنية عمر بن الخطاب: عنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ قَالَ: (رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَخَذَ تِبْنَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَقَالَ: يَا لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ شَيْئًا، لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي، لَيْتَنِي كُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا) [٢].

ولا يحمل على مثل هذه الأماني – الباعثة على الدهشة والاستغراب– ألا حقّ معرفة أصحابها بالله عز وجل وخوفهم من جنابه تعالى الخوف الباعث على العمل لحسن لقائه تعالى، فمن خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل.

وعودا على بدء: نجد أبا عبيدة قد استهل أمنيته بقوله "وددت" تعبيرا عن مدى تعلق قلبه وتشوف نفسه –رضي الله عنه – إلى تحقق هذه الأمنية، حيث يقوم جذر الكلمة وتصريفاتها على التعلق بالشيء ومحبته محبة جمّة[٣]

فالتعبير كاشف عن حالة المتكلم النفسية المتعلقة بالأمنية تعلقا بالغا، ولعل هذا يكشف عن سر إيثاره ـ رضي الله عنه –التعبير بـ "وددت" دون غيرها من مثل: "يا ليتني"...

فالتمني ـ كما لا يخفى ـ هو طلب الشيء البعيد أو المستحيل الوقوع [٤]، والتعبير به هنا ـ لا ريب ـ يُطفئ جذوة النفس المشتاقة، ولا ينهض بالمعنى المراد.

ـ ويأتي تعبيره ـ رضي الله عنه ـ بالكبش "وددت لو أني كنت كبشا"، لكون الكبش من أفضل ما يُتقرب به ذبحا (وخير الضحية الكبش) [٥] وذلك شائع في بيان العربية: ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [٦].

وفي بيان النبوة (كان صلى الله عليه وسلم إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين) [٧].

---

١) مصنف ابن أبي شيبة – مكتبة الرشد الرياض – ط: الأولى ـ ت: كمال يوسف الحوت –٧ /٩١ حديث: ٣٤٤٣٢، وشعب الإيمان –البيهقي –دار الكتب العلمية – بيروت – ط: الأولى، ١٤١٠هـ – ت: محمد السعيد بسيوني زغلول ٤٨٥/١ – حديث ٧٨٦

٢) مصنف ابن أبي شيبة ٩٢/٧.

٣) راجع إن شئت قول المفسرين عند قوله تعالى " يود أحدهم لو يعمر ألف سنة " البقرة٩٦، وقوله " أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب " البقرة ٢٦٦ – الكشاف ١٦٧/١، التحرير والتنوير٦١٨/١

٤) التعريفات للشريف الجرجاني (ت: ٨١٦هـ) ت: جماعة من العلماء – نشر: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان – ط: أولى١٤٠٣هـ –١٩٨٣م – صـ ٤٩

٥) تهذيب اللغة ـ الأزهري (كبش)

٦) الصافات ١٠٧ – أي بِكَبْشٍ يُذْبح –انظر السابق

٧) صحيح البخاري –كتاب الأضاحي –باب في أضحية النبي صلى الله عليه وسلم بكبشين أقرنين، حديث ٥٢٣٣، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد –الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ) ت: حسام الدين القدسي –نشر: مكتبة القدسي، القاهرة عام النشر: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م –٢٢/٤

ورمزية الكبش للذبح عموما شائع في لسان العرب، يؤيد ذلك الحديث الشريف (يؤتى بالموت على هيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة: فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، وكلهم قد رآه. ويُقال لأهل النار مثل ذلك، فيُذبح، ثم يُقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت)[١]، كما أن الكبش يُطلق على كبير القوم وسيدهم وحاميهم، وعليه ورد قول الأخنس بن شهاب التغلبي:

فهم يضربون الكبش يبرق بيضه على وجهه من الدماء سبائب [٢]

وعلى هذا المعني فذبح سيد القوم وحاميهم ـ على شناعته وقسوته ـ أهون عند أبي عبيدة من أهوال القيامة.

ثم تتوالى الفاءات في أمنية أبي عبيدة: " فيذبحني أهلي، فيأكلون لحمي " دلالة على التعقيب والمباشرة، وكأنه ـ رضي الله عنه ـ لا يريد ولا يطمع أن يُمتّع بلحظة حياة في الدنيا، بل ودّ لو كان كبشا، فقام إليه أهله فذبحوه في غير توان أو إمهال له.

ثم يُسند الذبح إلى الأهل "فيذبحني أهلي" ويا لها من نكارة وفظاعة! أن يُذبح المرء على يدّ أهله،

وظُلم ذوي القُربى أشدُّ مضاضة على المرء من وقع الحُسام المهند [٣]

إذ المنوط بهم منعته وحمايته، والمأمول فيهم شدّ الأزر والعون على الخير.

ومع جسامة هذه الفعلة ومرارتها، فإنها أهون على أبي عبيدة من لقاء الله جل جلاله.

ثُم تأبى نفسُه السخية – رضي الله عنه– إلا أن يُفيد أهله منه –حتى في مشهد ذبحه المؤلم الفظيع – "يأكلون لحمي ن ويحسون مرقي".

ووجوه الانتفاع من الذبيحة كثيرة: لحمها، مرقها، جلدها، أظلافها، قرونها... غير أن أبا عبيدة خص منها أشهر وجوه الانتفاع: "يأكلون لحمي، ويحسون مرقي" تاركا ما ترك منها اعتمادا على فطنة السامع، وإشراكا له في فهم المقصود.

ومثل هذه الأخبار عن خوف الصحابة والتابعين مشهورة في حالهم مستفيضة عنهم، وهو (باب يطول تتبعه) [٤].

وتجري هذه الأمنيات – شديدة الغرابة، بالغة الصعوبة على النفس – في مقام فريد عزيز، لا نكاد نجد له نظيرا هو مقام: شدة الخوف من جناب الله، والفزع من أهوال يوم القيامة هو الباعث على هذه الأمنيات، فما

---

١) متفق عليه

٢) يمدحهم بكونهم ـ عند المواجهة والنزال –يقصدون كبار القوم ويعمدون إلى الرؤساء دون الرعاع أو العجزة. (المفضليات –ت: أحمد شاكر ـ عبد السلام هارون ـ دار المعارف –سادسة –٢٠٧/١)

٣) شرح المعلقات السبع – الزَّوْزَنِي، أبو عبد الله (ت:٤٨٦هـ) نشر: دار احياء التراث العربي – ط أولى ١٤٢٣هـ –٢٠٠٢م معلقة طرفة بن العبد.

٤) للراغب في الاستزادة مراجعة: الداء والدواء ـ ابن قيم الجوزية(ت:٧٥١هـ) مطبوعات: مجمع الفقه الإسلامي بجدة ـ ١٤٢٩هـ ت: محمد أجمل الإصلاحي

حملهم على ذلك –رضوان الله عليهم أجمعين – إلا معرفتهم بالله تعالى وشدة خوفهم منه، وخوفهم هذا أمارة إيمانهم الحي، ولذا يقول الحسن – رضي الله عنه – (ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق)[١].

وفي الجانب الآخر نجد هؤلاء الكملة البررة يُشمرون للجنة ويسألون الله من واسع فضله وعظيم عطاياه، وكلهم رجاء في عفوه ولسان حالهم ردا على سؤال رب العالمين " فما ظنكم برب العالمين " لسان حالهم يُجيب: ظني فيك يا رب جميل.

أقول ذلك كيلا يُتوهم أن هؤلاء الأخيار ليس عندهم إلا هذا الخوف الذي قد يبعث– عند غيرهم – على اليأس والقنوط، فيلجأ إلى ما حكاه الحديث الشريف:

عن أبي هريرة، عن النبي –صلى الله عليه وسلم –قال: (أسرف رجلٌ على نفسه، فلما حضره الموتُ أوصى بنيه فقال: إذا أنا مت، فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم اذرُوني في الريح في البحر، فوالله لئن قدَر عليَّ ربي ليعذبني عذابًا ما عذَّبه به أحدًا، قال: ففعلوا ذلك به، فقال للأرض: أدِّي ما أخذتِ، فإذا هو قائم، فقال له: ما حملكَ على ما صنعتَ؟ فقال: خشيتُك يا رب –أو قال: مخافتك –فغفر له بذلك) [٢].

موجز القول في وصف حالهم هي: غاية خوفهم مع غاية إحسانهم.

ألحقنا الله بهم على خير، ورزقنا حسن الاقتداء، ووهبنا حق خشيته تعالى.

مقام تزكية النفس

النص الثالث: عَنْ أَبِي عبيدة بن الْجَرَّاحِ :أَنَّهُ كَانَ يَسِيرُ فِي الْجَيْشِ وَهُوَ يَقُولُ:

ألا رب مُبيض لثيابه مُدنس لدينه! ألا رُبَّ مُكرم لنفسه وهولها مُهين!

(ادرؤوا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات فلو أن أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء ثم عمل حسنة، لعلَت فوق سيئاته حتى تغمرهن) [٣].

هذا نموذج من الكلام العالي، يُفتتح بالتنبيه المتكرر بـ "ألا"، وفائدة الاستفتاح وتكراره هنا هي: التنبيه واستجماع الأذهان، ولفت انتباهها إلى قيمة الكلام بعدها وما يستحقه من اهتمام وحضور ذهن ونشاط نفس، وجرت سُنة العرب على استفتاحهم في المعاني ذات الشأن، والنص هنا قائم على معان عالية، هي أساس النصر، و ما كان كذلك لا يُساق غفلاً، بل لابد معه من التنبيه الموقظ للنفوس من داء الغفلة، ثم يأتي التعبير بـ (رُبّ)

---

١) فتح الباري – ابن رجب .كتاب الإيمان . باب: خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر –١٧٧/١، الجواب الكافي لابن القيم – فصل الرجاء والأماني – ٤٢/١

٢) متفق عليه – واللفظ لمسلم: كتاب التوبة –باب في سعة رحمة الله تعالى –وأنها سبَقت غضبَه.

٣) الزهد – أبي داود – من خبر أبي عبيدة –دار المشكاة للنشر والتوزيع – ط١٩٩٣ – ت: ياسر إبراهيم –غنيم عباس– حديث ١١٦، حلية الأولياء . أبي نعيم الأصبهاني –أبو عبيدة بن الجراح . نسخة مكتبة الخانجي ودار الفكر المصورة عن دار السعادة بمصر – دون تحقيق –١٠٢/١ – حديث ٣١٩

وهي من الكلمات ثنائية الوضع كما يقول النحويون، فقد ترد بمعنى القلّة – و هو معناها العام عند غالب النُحاة – ومن شواهد إفادة (رُبَّ) للتقليل قول الشاعر:

ألا رُبَّ مولود وليس له أب وذي ولد لم يلده أبوان [١].

وقد ترد (رُبَّ) بمعنى الكثرة كقوله صلى الله عليه وسلم "رُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه"[٢] وقوله:(رُبَّ كاسية عارية)[٣] والمقام هو الذي يحدد معنى التقليل أو التكثير فيها وحملها هنا على التكثير أقرب وأنسب.

ثم يأتي التعبير باسم الفاعل "مُبيض، مُدنس، مكرم، مهين" لتركيز الضوء على جُهد العبد وبذله في هذه الأفعال المتكررة، وعليه تقع دائرة الثواب أو المؤاخذة، ولا يظلم ربك أحداً.

وقد أسهم الطباق هنا "مبيض، مدنس، مكرم، مهين" في زيادة حُسن الكلام وملاحته، إذ بضدها تتمايز الأشياء.

ثُم يُقدّم الجار و المجرور في الجملة الأخيرة "وهو لها مُهين" لبيان أن هذه النفس هي مناط الاهتمام الواجب من الفرد، فلتزكيتها يعمل، و لإكرامها يجد و يسعى، كما أرى في هذه الجملة الأخيرة (ألا رُبَّ مكرم لنفسه و هو لها مهين) تأثراً وضحاً بالتنزيل الحكيم، و ذلك قوله تعالى: ﴿..وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [٤].

كما أن الطباق مع تقديم الجار والمجرور قد أخرج الكلام في صورة رشيقة وجُمل أنيقة، وحذا الكلام بهما حذوًا ييسره للحفظ والعمل به، فجاءت عباراته – رضي الله عنه –من هذا النط العالي، بما حملته من وقع حسن على النفس وهي تستقبل هذه المعاني الحسنة، لأن المعنى الحسن ينبغي أن يسكن المبنى الحسن.

ثم تأتي نصيحة أبي عبيدة بصيغة الأمر الصريح: "ادرؤوا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات"، وفي رواية أخرى (بادروا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات) [٥].

---

١) معجم شواهد العربية- عبد السلام هارون (ت ١٤٠٨هـ) نشر: مكتبة الخانجي –ثالثة – ٢٠٠٢م – ٣٩٨/١، شواهد التوضيح و التصحيح لمشكلات الجامع الصحيح – ابن مالك – تحقيق د.طه محسن – مكتبة ابن تيمية – أولى ١٤٠٥ هـ – شاهد ١١٥ – ١٦٤/١، خزانة الأدب – البغدادي(ت: ١٠٩٣هـ) تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة – ط: الرابعة، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م – شاهد ١٤٦، الكتاب . سيبويه (ت: ١٨٠هـ) ت:عبد السلام هارون- مكتبة الخانجي، القاهرة،ط: الثالثة، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م – باب يحرك فيه الحرف الذي يليه المحذوف ١٣٤/١، الجنى الداني في حروف المعاني –المرادي(ت:٧٤٩هـ) – ت: د فخر الدين قباوة – أ محمد نديم فاضل- دار الكتب العلمية . بيروت (مسألة: رُبّ)

٢) سنن ابن ماجة (ت٢٧٥ هـ) نشر: دار عيسى الحلبي – تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي – أبواب العلم – ما جاء في الحث على السماع –حديث ٢٦٥٦

٣) البخاري – التهجد – باب العلم والعظة بالليل.

٤) الحج ١٨.

٥) الزهد أحمد بن حنبل – أخبار أبي عبيدة حديث ٦٥٦ – دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩ م – تخريج محمد عبد السلام شاهين.

وأرى أن رواية "ادرؤوا" أعلى وأخدم للمعنى لمشابهتها النُظم القرآني في قوله تعالى (ويدرؤون بالحسنة السيئة)[١].

ثم إن في الدرء معنى الدفع، وكأن الحسنة تدفع السيئة دفعاً، وفي هذا تصوير للمعنى العقلي في صورة محسوسة، ولا ريب أن ذلك قد زاد النص بهاءً وحُسناً وإعمال العقل فيه.

ويُلفت الانتباه هنا مجيء وصف السيئات والحسنات مجموعاً: (السيئات القديمات.. الحسنات الجديدات)، ووصف جمع المؤنث بالمفرد وبالجمع جارٍ على لسان العرب، فيمكن القول: جبال راسية وجبال راسيات، وفي التنزيل الحكيم ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ البقرة ٨٠، وفيه كذلك ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾آل عمران ٢٤

ووصف الجمع بالإفراد "معدودة" أكثر من وصفه بالجمع "معدودات"، لأن المفرد يحتمل الجنس، أما الجمع "معدودات" جُمع قلةً لا غير.

والملاحظ أن أبا عبيدة هنا آثر الوصف بالجمع- وهو نص في القلة – مراعاةً لحال المخاطب، لأنه يخاطب الصحابة رضوان الله عليهم، وهُمْ عن السيئات أبعد، وفي هذا من الأدب ما فيه! وأمارة حسن فقهه رضي الله عنه.

ثم تأتي جملة "فلو أن أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء" جارية على لاحب الحديث القدسي، وفيها من روحه: "يا بن أدم إنك لو أتيتني ـ الأرض خطايا ثم لقيتني لا تُشك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة" [٢].

وتعبيره رضي الله عنه عن امتلاء ما بين السماء والأرض من السيئات ناظر إلى أنوار البيان النبوي في قوله صلى الله عليه وسلم "وسبحان الله و الحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض" [٣].

ولا يفوتنا هنا ما أضافه أبو عبيدة – رضي الله عنه وأرضاه – من: علوّ الحسنة فوق السيئات ومن كونها تغمرها، فذلك شيء جديد.

وقد حاز هذا النص علو كعبه في البيان من جهات عدة:

أ — من جهة مناسبته، فقد قاله أبو عبيدة – رضي الله عنه – وهو يسير في العسكر على نحو ما صرحت به الرواية الأُخرى [١]، ولا جدال في أن تحصين الجيش بالطاعة لله، وتخلية النفس من أوضارها هو عدّة النصر

---

١) الرعد ٢٢

٢) سنن الترمذي (ت: ٢٧٩هـ) تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرون – ط: مصطفى البابي الحلبي –ط: الثانية، ١٣٩٥ هـ –١٩٧٥ م ـ كتاب الدعوات — باب في فضل التوبة — حديث ٣٤٩١

٣) مُسلم —كاب الطهارة — باب فضل الوضوء — حديث ٢٢٣

ورضي الله عنه الفارق عمر، فقد وصى قائده يوم القادسية (أما بعد؛ فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال؛ فإن تقوى الله أفضل العدّة على العدوّ، وأقوى المكيدة في الحرب. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدّ احتراسا من المعاصي، منكم من عدوّكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوّهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوّهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدّتنا كعدّتهم، فإذا استوينا في المعصية، كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا، لم نغلبهم بقوتنا .

واعلموا أن عليكم في مسيركم حفظة من الله، يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله؛ ولا تقولوا إن عدوّنا شر منا فلن يسلّط علينا، وإن أسأنا؛ فربّ قوم سلّط عليهم شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفّار المجوس، فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْداً مَفْعُولًا" (٢).

وفي السياق ذاته تروي كتب التاريخ يوم القادسية (كان سلمان الفارسيُّ يساير سعدًا في الماء، فكان سعدٌ يقول: "حسبنا الله ونعم الوكيل، واللهِ لينصرنَّ الله وليه، وليظهرنَّ دينه، وليهزمن عدوَّه"، إن لم يكن في الجيش بغيٌ، أو ذنوب تغلب الحسنات) (٣).

ب – من جهة بنائه:

١. فالنص قائم على المقابلة التي تظهر الفرق بين المظهر والمخبر، والعَرض والجوهر وعند الامتحان في المعارك وغيرها يزول المظهر والعرض، ولا يبقى غير المخبر والجوهر، فأبو عبيدة يغوص بجيشه تحقيقاً للجوهر وعنايةً بما يُقوي الأمة وينقذها، وليس المظهر البرّاق الخدّاع من ذلك في شيء.
٢. كما أن النص – من جهة بنائه – قد بُني على ثلاث جمل: جُملتان مُصدرتان بـ "ألا – جملة (ادرؤوا السيئات القديمات...).

---

١) الزهد –أحمد بن حنبل– حديث٦٥٦

٢) العقد الفريد –ابن عبد ربه الأندلسي (ت:٣٢٨ هـ) دار الكتب العلمية – ط أولى ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م– ت: مفيد قميحة – ١١٧/١، وإن كان في إسناده مقال غير أن مضمونه جيد، وقد رواه أبو نعيم في " حلية الأولياء" – ٥/ ٣٠٢– بمعناه عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فقال أبو نعيم:عَنْ مَسْلَمَةَ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ: '' أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ، عَهِدَ إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ: ''عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ فِي كُلِّ حَالٍ يَنْزِلُ بِكَ، فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ أَفْضَلُ الْعُدَّةِ، وَأَبْلَغُ الْمَكِيدَةِ، وَأَقْوَى الْقُوَّةِ، وَلَا تَكُنْ فِي شَيْءٍ مِنْ عَدَاوَةِ عَدُوِّكَ أَشَدَّ احْتِرَاسًا لِنَفْسِكَ وَمَنْ مَعَكَ مِنْ مَعَاصِي اللهِ، فَإِنَّ الذُّنُوبَ أَخْوَفُ عِنْدِي عَلَى النَّاسِ مِنْ مَكِيدَةِ عَدُوِّهِمْ، وَإِنَّمَا نُعَادِي عَدُوَّنَا وَنَسْتَنْصِرُ عَلَيْهِمْ بِمَعْصِيَتِهِمْ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ تَكُنْ لَنَا قُوَّةٌ بِهِمْ، لِأَنَّ عَدَدَنَا لَيْسَ كَعَدَدِهِمْ، وَلَا قُوَّتُنَا كَقُوَّتِهِمْ، فَإِنْ لَا نُنْصَرْ عَلَيْهِمْ بِمَقْتِنَا لَا نَغْلِبْهُمْ بِقُوَّتِنَا، وَلَا تَكُونُنَّ لِعَدَاوَةِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَحْذَرَ مِنْكُمْ لِذُنُوبِكُمْ، وَلَا أَشَدَّ تَعَاهُدًا مِنْكُمْ لِذُنُوبِكُمْ)

٣) تاريخ الطبري (ت: ٣١٠هـ) دار الكتب العلمية – ٤ /١٢، ١٣، دلائل النبوة – أبو نعيم (٤٣٠هـ) ط. النفائس. بيروت –١٩٨٦م – ت: محمد رواس قلعه جي – عبد البر عباس – ٧٣٥/٢، الكامل ابن الأثير (ت:٦٣٠هـ) ت: عمر عبد السلام تدمري الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت –لبنان – ط: أولى،١٤١٧هـ /١٩٩٧م – ٣٥٧/٢، البداية والنهاية– ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) نشر: دار الفكر –١٤٠٧ هـ – ١٩٨٦ م ١٠ – جـ١١–١٢.

وكل جملة منها لؤلؤة مستقلة، فليست من الكلام المعجون بعضه ببعض، ولذا يصح أن تُقدّم الثالثة على الأولى، والثانية على الأولى، وهكذا... ومن هذا الباب قول الجاحظ: "جُنبك الله الشبهة.. وعصمك من الحيرة وجعل بينك وبين المعرفة نسباً"(١).

المبحث الثاني: مقام الزهد: النص الأول

روى نافع ابن عمر: أن عمر حين قدم الشام قال لأبي عبيدة: اذهب بنا الى منزلك. قال: وما تصنعُ عندي؟ ما تريد إلا أن تعصر عينيك عليَّ.

قال: فدخل لم ير شيئا قال: أين متاعك؟ لا أرى إلا لِبْدا وصَحْفة وشَنَاً وأنت أمير، أعندك طعام؟ فقام أبوعبيدة الى جونة؛ فأخذ منها كُسيْرات، فبكى عمر، فقال له أبو عبيدة: (قد قلت لك: إنك ستُعصّر عينك علي يا أمير المؤمنين، يكفيك ما يبلغك المقيل) (٢).

تُبرز هذه الحادثة جانبا مهما من جوانب شخصية سيدنا أبو عبيدة رضي الله عنه وعن صحابة سيدنا رسول الله الكملة البررة، ألا وهو جانب الزهد في الدنيا ومتاعها، ورقة حاله رضي الله عنه.

يتجلى ذلك حين قدم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام (لم يبق أمير من أمراء الأجناد إلا استزار عمر؛ فيصنع له ويسأله أن يزوره في رحله فيفعل ذلك عمر- إكراما لهم - غير أبى عبيدة فإنه لم يستزره، فقال له عمر: إنه لم يبق أمير من أمراء الأجناد إلا استزارني، غيرك!

فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين؛ إني أخاف إن استزرتُك أن تعصر عينيك) (٣).

فأصرَّ عمرُ على زيارة أبي عبيدة فقال له: وماذا تصنع عندي؟!

بهذا السؤال الحامل لأكثر من معنى: التعجب والشفقة على سيدنا عمر من زيارة صاحبه على رقّةِ حاله؛ ولا يُفهم من الاستفهام هنا تبّرم سيدنا أبو عبيدة وتضجره من حاله؛ بل إن نهاية كلامه كاشفة عن تمام رضاه عن حاله.

ثم يُبِين أبو عبيدة عن جانب من هذا التعجب وتلك الشفقة عن طريق أسلوب القصر: "ما تُريد إلا أن تعصر عينيك عليَّ".

وإذا راجعنا باب التوكيد وطرائقه المتنوعة وجدنا القصر منها في القمة والغاية، لكونه توكيدا مضاعفا فهو في قوة الجملتين كما يقول البلاغيون.

---

١) الحيوان للجاحظ – مكتبة مصطفى الباب الحلبي – تحقيق عبد السلام هارون – ط ثانية –المقدمة جـ١/٣

٢) كتاب الزهد – ابن المبارك . ط: دار الكتب العلمية . تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي –باب ما جاء في الفقر –فقرة ٥٨٦ –صـ١٩٧، سير أعلام النبلاء: ٧/٣

٣) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء - أبو الربيع سليمان الكلاعي الحميري (ت:٦٣٤) نشر دار الكتب العلمية – بيروت – صـ ٦٨٦

وحسن إيراد القصر هنا لكونه أبان عن الانفعال والتأثر الوجداني المحيط بالمقام

فقد أفاد القصر هنا التأكيد على أن حال أبو عبيدة ليست مثارة للشفقة ولا داعية للبكاء عليها وحسب؛ بل لتعصير العين –وذلك بعد جفاف دموعها–مبالغة في البكاء على رقّةِ حاله وخشونة معيشته، وهو عنها راض. رضى الله عنه وأرضاه.

ويؤثر طريق النفي والاستثناء هنا دون غيره من أدوات القصر لكونه أم الباب؛ وأقوى طرائق القصر ويغلب استدعائه في المقامات عالية النبرة شديدة الواقع المكتنزة بالأحاسيس والمشاعر كما هنا.

وفى قوله رضي الله عنه "تُعصِّر عينيك عليَّ" مبالغة في وصف حاله وشظف عيشه، وقد أفيدت المبالغة هنا من زيادة مبنى الكلمة، حيث جاءت مُضّعَفة (تُعَصِّر) وكان ممكنا تخفيف مبناها(تعصر) مثلا؛ وزيادة المبني دالة على زيادة المعنى.

كما أفيدت المبالغة أيضا هنا من "تعصير العين" كناية عن جفافها من كثرة بكائها على رقة الحال وقلة ذات اليدّ، فلم يبق في مجاريها دموع تذرفها، فاحتيج إلى تعصيرها، وهو ما أكده بكاء عمر: "فبكى عمر" حين صدَّق الواقعُ والحالُ المقالَ. فيسأل عمر أبا عبيدة: لو اتخذت متاعا؟ فيجيبه أبوعبيدة رضى الله عنه: قد قلت لك: إنك ستعصر عينيك عليَّ يا أمير المؤمنين، يكفيك ما يُبلِّغك المقيل.

ويلاحظ افتتاح جوابه –رضى الله عنه – بإنَّ واسمية الجملة في قوله: "إنك"، تأكيدا على مضمون الجملة التي أحاطت بسواريّ الحوار ابتداء وختاما، أعني: "تعصر عينيك"

ويأتي النداء هنا إما نهاية وقُفلا للجملة الأولي "إنك ستعصر عينيك يا أمير المؤمنين"، وحينئذ يفيد الأنس والتودد ويكشف عن عظيم الاحترام والتوقير بين هذا الجيل المحمدي؛ كما أنه لا يخلو من مواقع الشفقة.

وقد يكون النداء مفتتحا للجملة الثانية: "يا أمير المؤمنين يكفيك ما يبلغك المقيل"

وساعتها يفيد الإعلام ولفت الانتباه وجذب الأذهان، فكأن النداء هنا طرقة تطرق العقل وتجمع شتات النفس فتستقبل المعني المراد أكرم استقبال، أعنى: "يكفيك ما يبلغك المقيل" وهذا هو معقد المعنى وواسطة العقل في القصة على ما يبدو.

وقد اكتسى هذا المعنى حُلّة من الأُبَّهة والفخامة من عدة جهات:

١. مجيؤه في صورة الاستعارة التمثيلية؛ حيث شبه هيئة ما يُبلِّغ الدارَ الآخرة دون استكثار، بهيئة من أنضاه الكدَّ والنصب ليبلغ الراحة وقت القيلولة؛ ثم حذف هيئة المشبه واستعار لها هيئة المشبه به؛ وهذه الاستعارة لها ما لها من الفخامة وعلو الكعب.

٢. ارتداؤه ثوب إيجاز القصر؛ فقلّتْ كلماتُه رغم اكتنازه بالمعاني الوفيرة؛ الأمر الذي ساهم في خروج هذا القول مخرج المثل والحكمة، وجريانه على اللسان وسهولة حفظه رائحة، وفي هذا القول رائحة من عبق النبوة؛ فكأني به ناظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم: (مالي وللدنيا؛ إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال -أي نام -في ظل شجرة؛ في يوم صائف؛ ثم راح وتركها) [١].

مقام الزهد

النص الثاني:

حَدَّثَنَا أَبُو المُغِيْرَةِ، حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بنُ عَمْرٍو، حَدَّثَنَا أَبُو حِسْبَةَ مُسْلِمُ بنُ أَكْيَسَ مَوْلَى ابْنِ كُرَيْزٍ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، قَالَ: ذَكَرَ لِي مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ فَوَجَدَهُ يَبْكِي، فَقَالَ: مَا يُبْكِيْكَ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ؟ قَالَ: يُبْكِيْنِي أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-ذَكَرَ يَوْماً مَا يَفْتَحُ اللهُ عَلَى المسْلِمِيْنَ، حَتَّى ذَكَرَ الشَّامَ، فَقَالَ: (إِنْ نَسَأَ اللهُ فِي أَجَلِكَ، فَحَسْبُكَ مِنَ الخَدَمِ ثَلاَثَةٌ: خَادِمٌ يَخْدُمُكَ، وَخَادِمٌ يُسَافِرُ مَعَكَ، وَخَادِمٌ يَخْدمُ أَهْلَكَ، وَحَسْبُكَ مِنَ الدَّوَابِّ ثَلاَثَةٌ: دَابَّةٌ لِرَحْلِكَ، وَدَابَّةٌ لِثِقَلِكَ، وَدَابَّةٌ لِغُلاَمِكَ) ثم ها أنا ذا أنظر إلى بيتي قد أمتلأ رقيقاً. وإلى مربطي قد امتلأ خيلاً، فكيف ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها» [٢].

يُصدّر سيدنا أبو عبيدة -رضي اللهُ عنه-كلامه بهذا التركيب المفعم بالأسى والتعجب "ها أنا ذا" فالهاءُ للتنبيه وللإشعار بأن مضمون الجملتينِ بعدها «قد امتلأ رقيقاً، قد امتلأ خيلاً» عنده -رضي الله عنه-أمر عظيم ومفادهما عجيب.

إذ كيف يّلقى رسولّنا -صلى الله عليه وسلم-على هذهِ الحال؟؟ بعد توجيهه صلى الله عليه وسلم له وتذكرته إياهُ -رضي الله عنه-بالتخفف من هاتين تحديداً، فهذا التنبيه وما تلاهُ جعل الكلام أدخل في باب التعجبِ والأسف على الحال.

ويلي "هاء التنبيه" ضمير المتكلم المنفصل "أنا" لتقرير نظره -رضي الله عنه-وتأكيده لمن قد يشك أنه -رضي الله عنه-هو.

وتأتي الإشارة "ذا" لتعيين مفاد الضمير المنفصل قبلها "أنا"، والتركيب بهذهِ الصورة: "ها أنا ذا" جار على سنن العرب ولسانهُم وهو مختص غالباً بمقام التعجب؛ والتعجب هنا مفاد من الجملة المذكورة بعد التركيب، فهي بيان لمنشأ التعجب.

---

١) الترمذي: الزهد ـ باب ما جاء في أخذ المال بحقه ـ حديث ٢٣١١، مسند أحمد: مسند عبد الله بن مسعود ـ حديث ٤٠٦٥، سنن ابن ماجة – الزهد ـ باب مثل الدنيا ـ حديث ٤١٠٦.

٢) سير أعلام النبلاء:٣/٦-فقرة ١٤٢: أبو عبيدة بن الجراح، تاريخ دمشق ابن عساكر (٤٧٩/٢٥).

والتعجب قد يكون من حال المتكلم –كما هُنا–وقد يكون التعجب من حالِ المخاطب [١]، والتعجب في كلام أبي عبيدة هنا مشوب بتخطئة النفسِ ولومها، الأمر الذي يكشف علوّ كعب هذا الجيل في تربية أنفسهم ومراجعتهم إياها، فكانوا ربّاعين لوّامين أنفسهُم، رضي الله عنهم أجمعين، وصلى الله وسلم على من رباهم على عينهِ.

ثم يؤكد مضمون الكلام بـ"قد" الداخلة على الفعل الماضي في قوله "قد امتلأ" لتُفيد تحقيق وقوع الفعل، فالأمر ليس توهماً ولا ظناً.

ثم يجري الكلامُ على لاحب البيان بعد الإبهام بقوله رضي الله عنه: "قد امتلأ رقيقاً "،" قد امتلأ خيلاً". والبيان بعد الإبهام من الأساليب التي تكسو الكلام رفعةً وتزيدُه فخامة من حيث تنبيههِ النفس، وإستجماعهِ شتاتها، ومن ثمَّ تقرير المعنى أبلغَ تقرير، بعد أن تشوقَت إليهِ.

وشتان بين تلقي النفس الشاردة الساهِية للمعنى وبين النفسِ الحاضرة المنبّهة شريكة المتكلم في فهمِ المعنى؛ والإبهام هنا في قولهِ رضي الله عنه "قد امتلأ "، والبيان في قوله "رقيقا.. خيلا".

ثم يأتي قوله رضي الله عنه "بيتي قد امتلأ رقيقاً...ومربطي قد امتلأ خيلاً" على هذهِ الصورة من النظم، لإفادة المبالغة، والتي مُنشؤها هنا: إسناد الفعل إلى المكان، فأفادَ العمُوم.

وبونٌ شاسع بين قولنا: "اشتعلت النار في الحيّ" وبين "اشتعل الحيُّ ناراً"، فالتعبير الثاني موغل في إفادة المبالغة من حيث أفاد أن النار لم تُبقِ جزءاً ولا ذّرة من جنباتِ هذا الحيّ أو أركانه إلاَّ أتت عليهِ.

كذلك فقد أفاد تعبيره رضي الله عنه هنا: أنه ما من موضعٍ في بيتهِ أو مربطهِ إلا وقد امتلأ رقيقاً...خيلاً، فأفادَ الشمُول وأنهما أي "الرقيق...الخيل" قد شاعا في: "البيت، المربط" وأخذهما من نواحيهما، حتى لم يبقَ من فراغهما شيء لا يُعتد بهِ.

ومبعث الروعةِ في هذا التركيب ومثله، آتٍ من ترك إسناد الفعلِ إلى أصلهِ، وإسناده إلى ما له صلة بأصلهِ، فالبيتُ مكان للرقيق؛ والمربطُ مكان للخيلِ، ولهذا أعتبر الإمام عبد القاهر هذا التركيب من خفيّ النمط العالي ودقيقُه [٢].

والمبالغة في قولهِ "بيتي قد امتلأ رقيقاً...ومربطي قد امتلأ خيلاً " تحمل وجهاً من وجوهِ التحدث بنعمةِ الله عليه ـ رضي الله عنه وأرضاهُ ـ كما تحمل وجهاً آخر يبعثُ على الأسف والحزن من حيثُ تذكّر وصية رسول الله – صلى الله عليه وسلم–وعظتهُ له بالتخفف مما امتلأ بهِ البيتُ والمربط.

فكَيفَ يَلقىٰ رسولَه –صلى الله عليه وسلم–والحالة هذه؟!

---

١) كما في قوله تعالى ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفُسكم﴾...البقرة ٨، ﴿ها أنتم أولاءِ تحبونهم ولا يحبونكم﴾ آل عمران ١١٩.

٢) دلائل الإعجاز –مكتبة الخانجي –ت: محمود شاكر– فصل في النظم يتحد في الوضع ويدق في الصنع – ص ١٠٠، فقرة ٩١.

ثم يلاحظ حسن الترتيب في كلام سيدنا أبي عُبيدة: "بيتي قد امتلأ رقيقا ومربطي قد امتلأ خيلاً" ومجيؤه متسقاً مع ترتيبه في كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد جاء ذكرُ الرقيق أولاً، وتبعه ذكر الخيل ثانيا (... إن نسأ الله في أجلك فحسبك من الخدم ثلاثة: خادم يخدمك، وخادم يسافر معك، وخادم يخدم أهلك، وحسبك من الدواب ثلاثة...)

وأرى في حسن الترتيب هنا وجها من وجوه متابعتهم الكريمة ـ رضوان الله عليهم –للمحبوب الأكرم صلى الله عليه وسلم، واقتفاء أثره الشريف حتى في الكلام، وأكرم بها من متابعة!

ثم يأتي هذا الاستفهام الحامل لشحنات الاستنكار ومعاتبة النفس ليكشف عما يعتلج في نفسه من أسى وأسف وذلك قوله "فكيف ألقى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعدها"، وتتصاعد نغمة الأسف والاستنكار في الترتيب، بتذكير النفس بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن أحبكم إلي.. وأقربكم مني.. من لقيني على مثل الحال التي فارقتكم عليها"، فيقطع رضي الله عنه بها الطريق على النفس الباحثة عن تبرير وتعليل، وعلى المستمع المجتهد في تهوين الأمر على نفْس أبي عبيدة، وكأن لسان حاله: هون على نفسك يا أبا عبيدة.

وتصاعد المعاني في النفس بهذه الكيفية ودور البيان في الكشف عنه بحث جدير بالدراسة، أرجو الله أن يهيئ له من ينهض بحقه.

المبحث الثالث: مقام نصيحته للخلفاء ومعرفته أقدار الرجال.

النص الأول: (عن زيد الأيامي قال: كتب أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب: أما بعد: فإنا عهدناك وشأن نفسك لك مهم، فأصبحتَ اليوم وقد وليتَ أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يديك الشريفُ والوضيع والصديقُ والعدو، ولكلٍ حصته من العدل، فانظر كيف أنت عند ذلك يا عمر؟ وإنا نحذرك ما حُذرت الأمم قبلك، ونحذرك يومًا تعنو فيه الوجوه وتوجل فيه القلوب وتنقطع فيه الحجج لغرة ملك قاهر، هم له داخرون وينتظرون قضاءه ويخشون عقابه، وإنه كان يذكر لنا أنه سيأتي الناس زمان يكون إخوان العلانية فيه أعداء السريرة.

وإنا نعوذ بالله –عز وجل–أن ينزل كتابنا منك سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا، وإنما كتبنا به إليك والسلام.) [1].

- هذا نص شريف يحمل أنوار قلبي صاحبيه رضي الله عنهما.
- وبالتأمل نجد هذا النص يقوم على أربعة معان:

١. مقابلة حال سيدنا عمر قبل الخلافة وبعدها.

١) الرياض النضرة في مناقب العشرة – أبو العباس محب الدين الطبري (المتوفى: ٦٩٤هـ) نشر: دار الكتب العلمية – ط: الثانية –٣٩٦/٢

٢. العدل وأهميته في الأمة.

٣. التخويف من يوم القيامة وأهواله.

٤. الباعث على كتابة هذا الكتاب إلى سيدنا عمر رضي الله عنه.

وإذا عُدنا إلى المعنى الأول: مقابلة حال سيدنا عمر قبل الخلافة حين كان مهتما بشأن نفسه، لا يحمل إلا همها، بحاله بعد ما ولي أمر هذه الأمة: أحمرها وأسودها...، وجدنا هذه المقابلة الآسرة التي تخلع النفس خلعا من غفلتها وتوقظها من رقدتها، حين يتذكر ولي الأمر أنه – بعد أن كان مهتما بنفسه فقط، ساعيا لخلاصها يوم الحساب، وكفي بنقاش الحساب عذابا!

أقول: بعد أن كان هذا هو حال ولي الأمر من الكرب والهمّ، فكيف به حين يُنادى "وقفوهم إنهم مسؤولون" عن (هذه الأمة)، التي أحضرها اسم الإشارة في الذهن وميزها أكمل تمييز، أحمرها وأسودها، وشريفها ووضيعها...

أنَّى له بهذا! وتحذير رسول الله صلى الله عليه وسلم يتردد في الآذان والآفاق: (كفى بالمرء إثما أن يُضيع من يعول) [١]، (ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة) [٢] وفي رواية أخرى (ما من أمير يلي أمر المسلمين، ثم لا يجهد لهم، وينصح، إلا لم يدخل معهم الجنة.)[٣].

فهذه المقابلة – بين حالي سيدنا عمر–أثارت هذه المعاني وغيرها مما لو وضعت على جبل لخرّ هداً.

وهذا المعنى هو ما أفزع خامس الخلفاء: عمر بن عبد العزيز، حفيد عمر بن الخطاب – الموجه إليه الكتاب هنا –، رضي الله عنهما، وأبكاه.

فقد روت كتب السير دخول زوجه – فاطمة بنت عبد الملك ـ عليه ذات ليلة فوجدته يبكي وينتفض كما ينتفض العصفور بلله القطر، فقالت: ما لك يا أمير المؤمنين؟ قال: ما لي!!

انى نظرت فوجدتني قد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها ثم ذكرت الفقير الجائع والغريب الضائع والأسير المقهور وذا المال القليل والعيال الكثير وأشياء من ذلك في أقاصي البلاد وأطراف الأرض فعلمت ان الله عز وجل سائلي عنهم وان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حجيجي لا يقبل الله مني فيهم معذرة ولا تقوم لي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حجة فرحمت والله يا فاطمة نفسي رحمة دمعت لها عيني ووجع لها قلبي فانا كلما ازددت ذكرا ازددت خوفا) [٤].

---

١) المستدرك على الصحيحين – النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ) ـ دار الكتب العلمية – بيروت– ط: الأولى١٤١١ –١٩٩٠ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ٤/٥٤٥، والسنن الكبرى للنسائي ـ ٥/٣٧٤.

٢) البخاري –كتاب الأحكام – " باب من استرعى رعية فلم ينصح " –حديث٦٧٣١.

٣) مسلم: كتاب الإيمان – باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار– حديث ١٤٢

٤) سيرة عمر بن عبد العزيز– ابن عبد الحكم (ت٢١٤ هـ) عالم الكتب – بيروت – لبنان –ط سادسة ١٩٨٤م – صـ١٥١.

وقد استهل الكتاب بالتوكيد (إنا عهدناك وشأن نفسك لك مهم) لتقرير مضمون الجملة بعده.

وفي قوله "عهدناك" – بالنظر إلى: أبي أعبيدة ومعاذ رضي الله عنهما، أو بالنظر إلى عموم الأمة – دلالة على خبرتهم بسيدنا عمر، وطول متابعتهم له وتفقدهم أحواله، رضي الله عنهم أجمعين.

كما في التعبير بـ " عهدناك " هنا دلالة على أن اهتمام سيدنا عمر رضي الله عنه بشأن نفسه وتفقده لها حالة مشهودة للقاصي والداني، وهذه منقبة لسيدنا عمر رضي الله عنه.

يقوي ذلك المعنى تقديمُ الجار والمجرور "لك" على "مهم" (عهدناك وشأن نفسك لك مهم).

وتعبيره بقوله "وشأن نفسك" يفيد العموم، فهو شامل لكل أمر يتعلق بنفسه، وقوله "وشأن نفسك لك مهم" جملة حالية من قوله "إنا عهدناك" وهي معقد هذا الخبر ومقصده.

ولعل إيثار وقت الصباح في قوله "فأصبحت اليوم" فيه دلالة على أن هذا الأمر وهو ولاية أمر الأمة أتاه وهو في نشاطه وقوته لم يدركه مرض مقعد ولا هرم مفسد ولذا فهو قوي للولاية مطيق لأخذها بقوة ووفرة نشاط وعزيمة.

كما أن الصباح فيه جموم النفس وعدم وجود ما يكدرها، وهذا أدعى للعدل الذي هو مقصد البيان، ثم إن الصباح وقت البشرى وانشراح الصدر وفيه وقت البكور، وهو وقت مبارك بدعوة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، وفي كل هذه المعاني ما يناسب المقام، ولفظة "اليوم" هنا لا يُراد به يوم بذاته، وهذا جار في لسان العرب، ومنه قولهم "كنت طفلا، فأصبحت اليوم رجلا".

ثم تأتي جملة "وقد وليت" حالا من ضمير الخطاب في " أصبحت"، وهي الجملة الأهم في هذا السياق، وبناء الجملة للمفعول " وليت " دال على أن الولاية قد طُلبت لسيدنا عمر رضي الله عنه ولم يطلبها هو، وهكذا ينبغي أن يكون، تنفيذا لقول الصادق المصدوق النبي ﷺ: إنا والله لا نولّي هذا العمل أحداً سأله، أو أحداً حرص عليه) [1] وعن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها)[2].

- ثم يأتي قوله "يجلس بين يديك" حالا ثانية من ضمير الخطاب في "أصبحت"، وفي التعبير بالمضارع (يجلس) ما يفيد تجدد جلوسهم وتكرره، وعليه فلا ينبغي لمن ولاه الله أمرا من أمور المسلمين أن يمنح رعيته فضلة وقته، ناهيك عن الاحتجاب عنهم، وليتذكر دوما أنه أجير عندهم، وليستشعر تحذيره صلى

---

١) البخاري –كتاب الأحكام –باب ما يكره من الحرص على الإمارة – حديث ٧١٤٩، ومسلم –كتاب الإمارة – باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها، حديث١٧٣٣.

٢) البخاري – كتاب الأحكام . باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله عليها – حديث٦٧٢٧.

الله عليه وسلم (من ولاه الله عز وجل شيئا من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم، وخلتهم وفقرهم، احتجب الله عنه دون حاجته وخلته وفقره)[١].

- ويأتي التعبير بقوله "بين يديك" كناية عن إحاطته رضي الله عنه بهم، وقدرته عليهم، وتمكنه منهم وخضوعهم له، وضعفهم بين يديه، وهذا كله أدعي للعدل بينهم وأجلب للرأفة بهم.
- كما أن التعبير بقوله " بين يديك " مؤذن بإتيانهم ولي الأمر وجلوسهم بين يديه من قدامه ـ لا من خلفه ـ وأنه مقبل عليهم بوجهه غير مدبر عنهم أو زاهد فيهم، وما ينبغي غير هذا لولي الأمر وما يكون!
- ثم يطالعنا التفصيل في قوله " أحمرها وأسودها..." بعد دخوله في عموم الإجمال "هذه الأمة" وذلك لإحضار الرهبة في قلب سيدنا عمر – رضي الله عنه – بتذكيره بجسامة الأمانة وعظم المسؤولية، خاصة بعد اتساع رقعة الإسلام في عهده –رضي الله عنه – حتى باتت سماء الإسلام تظل الأحمر والأسود والشريف والوضيع والصديق والعدو.
- ثم إن هذا التفصيل في غاية المناسبة لقوله بعده (ولكلٍ حصته من العدل) فإن بعض هذه الرعية مظنة عدم العدل بينهم (أسودهم.. الوضيع.. العدو) فتم ذكرهم تنبيها على أحقيتهم في عدل ولي أمر المسلمين، وإلا فالجالسون بين يديه كُثر، وهم لعدله مستحقون كذلك.
- ثم لا يخفى ما في الطباق وتتابعه هنا (أحمرها وأسودها..الشريف والوضيع..الصديق والعدوّ) من حسن وملاحة.
- وهكذا نرى سياق الكلام يقوم على جزئين: جزء يشوّق وهو: الإجمال، وجزء يُبيّن وهو: التفصيل.
- ويأتي قوله "ولكلٍ حصته من العدل" حالا من "الشريف والوضيع... " والتعبير بـ "كلٍّ" يقتضي الإحاطة والشمول، بحيث لا يشذّ منهم واحد، وهي مشعرة بأحقيتهم في عدل ولي الأمر، وأن ذلك ليس مِنَّة ولا تفضلا.
- يقوي ذلك المعنى: إضافة الحصة إلى الضمير "حصته" وكان يمكن القول: ولكل حصة من العدل، فالضمير في "حصته" أفاد أن هذه الحصة من العدل ملك له لا يتعدى عليها أحد، فضلا عن أن يسلبه إياها.
- وحُذف ما أضيفت إليه "كُلّ" هنا لدلالة المقام عليه، والتقدير: "ولكلِ واحدٍ حصته"، فلما حُذف المضاف إليه عوض عنه بالتنوين في "كلّ " وهو تنوين العوض كما يسميه النحويون.

---

١) سنن أبو داود – كتاب الخراج والإمارة والفئ – باب: بما يلزم الإمام من أمر الرعية والحجبة عنه – حديث ٢٩٤٨، – سنن الترمذي: الأحكام – باب ما جاء في إمام الرعية–حديث ١٣٣٢.

- ثم تأتي جملة الاستفهام (فانظر كيف أنت عند ذلك يا عمر؟) بمثابة النتيجة للمقدمات السابقة، والاستفهام هنا مفيد التنبيه والنصح.
- ثم ترتفع نبرة الأسلوب بمخاطبة ولي الأمر. رضي الله عنه . باسمه "فانظر كيف أنت عند ذلك يا عمر؟" لا بغيره من الألقاب والصفات كـ "امير المؤمنين، أو خليفة رسول الله" مثلا، وخطابه سيدنا عمر باسمه هكذا عاريا من الألقاب تذكير للجميع ولأولياء الأمر خاصة بورودهم على الله فرادي عرايا من زخرف الدنيا وبهرجها الخادع وألقابها، وقد احتشدت آيات قرآنية كثيرة تذكر بهذا منها قوله تعالى وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [1]، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [2].
- وفي مخاطبته باسمه كفاحا "عمر" هكذا دون رُتب أو وصف ".. ليدل ذلك على الجو العام الذي يغشى المجتمع المسلم في ظل الحكم الراشد العادل من حرية إبداء الرأي وإسداء النصيحة لولي الأمر".
- ولا عجب أن يكون ذلك موجها إلى عمر ذاته، فقد كان –رضي الله عنه –يحضهم على النصيحة ويحرضهم على قولة الحق لا يخافون في الله لومة لائم أليس هو القائل (لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها) [3] وهي منقبة من مناقب عمر رضي الله عنه.
- ثم تواصل نبرة النصيحة ارتفاعها (وإنا نحذرك ما حذرت الأمم قبلك) وذلك بإيثار التعبير بـ "التحذير" دون "النصيحة" مثلا، بكل ما توحيه مادة التحذير من ظلال تنشط لها النفس اللوامة وينتبه لها كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.
- ويلاحظ هنا التعبير بصيغة الجمع (وإنا نحذرك) والأمر فيه على ما سبق بيانه عند قوله (إنا عهدناك)، بمعنى أن يكون الجمع هنا ناظرا إلى: أبي عبيدة ومعاذ صاحبي الكتاب إلى عمر رضي الله عنهم أجمعين
- وقد يكون الجمع هنا ناظرا إلى عموم الأمة وقيامها بواجب النصح لأئمة المسلمين خاصة ونهوضها بالصدع بكلمة حق عند من ولاهم الله رعايتها وخدمتها، وقد أغراهم بالقيام به عمر نفسه رضي الله عنه، فقد روى الذهبي (أتى عمر مشربة بني حارثة، فوجد محمد بن مسلمة، فقال: يا محمد، كيف تراني؟ قال: أراك كما أحب، وكما يحب من يحب لك الخير، قويا على جمع المال، عفيفا عنه، عدلا في قسمه، ولو ملت عدلناك، كما يعدل السهم في الثقاف. قال: الحمد لله الذي جعلني في قوم إذا ملت عدلوني)[4] وإذا

---

١) مريم ٩٥.

٢) المؤمنون ١٠١.

٣) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب–ابن الجوزي . نشر: دار ابن خلدون – ١٩٩٦هـ صـ١٥٥.

٤) سير أعلام النبلاء ٢/٣٧٢.

استقام لي هذا الفهم فإن التعبير هنا كاشف عما كانت تتمتع به الأمة من حقوق وحريات تحت حكم البررة الراشدين.

- ويلاحظ بناء الفعل للمفعول في قوله (ما حُذرتْ الأمم قبلك) لكون الفاعل معلوما، وهو "الرسل"، أي ما حذرت الرسل أممها.
- ثم يكتسي الأسلوب ثوبا من الجلال والمهابة بهذا الاقتباس القرآني: "تعنو فيه الوجوه.. وتوجل فيه القلوب" هذه المهابة كفيلة بإيقاظ النفوس من غفلتها فتفزع إلى استفراغ الجهد في إبراء الذمة من حقوق العباد وبذل الوسع في إعطاء كلٍ حصته من العدل.
- واختيار هذه الأوصاف من أوصاف يوم القيامة (تعنو فيه الوجوه.. توجل فيه القلوب.. تنقطع فيه الحجج لغرة ملك قاهر) دون غيرها، في تمام المناسبة وكمال الملاءمة للمقام الناشد للعدل بين الجميع، المحذر من مغبة الظلم وسوء عاقبته في يوم تعنو فيه الوجوه أي: تخضع وتستسلم، وتوجل القلوب: أي تفزع وتخاف.
- ويا لجمال التناسب في قوله "ملك قاهر" حين أوثر التعبير بـ "ملك" دون "رب أو إله" مثلا فالتعبير هنا أنسب للمقام، فالكتاب موجه إلى سيدنا عمر – رضي الله عنه – بصفته حاكما وولي أمر المسلمين.
- وحين أوثر التعبير بـ "قاهر" دون بقية أسماء الله الحسنى، لكونه الأوفق لسياق الحديث عن العدل والتحذير من مغبة ظلم العباد، والتذكير بأنه جل جلاله هو القاهر فوق عباده، ففي استدعاء صفة القهر هنا فيه تربية للمهابة وزجر للنفس عن مجرد التفكير في ظلم خلق الله أو الاستعلاء عليهم.
- ثم يأتي المعنى الأخير من المعاني الأربع التي قام عليها هذا النص وهو: "بيان الباعث على كتابة هذا الكتاب للخليفة".
- فيأتي قوله رضي الله عنه (وإنه كان يذكر لنا أنه سيأتي الناس زمان...) توطئة وتمهيدا للجملة بعدها (وإنا نعوذ بالله عزوجل – أن ينزل كتابنا منك سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا، وإنما كتبنا به إليك) وكأنه حرص من أبي عبيدة وصاحبه على أن يُتقبل كتابهما القبول الحسن وأن يظن بهما الظن الأجمل، فأخوك الصدق من صدقك.

وكان الظاهر في ترتيب المعاني أن يأتي بيان الباعث على هذا الكتاب أولا، لأن كل كاتب يبين سبب كتابته أول رسالته أو كتابه، لكنه جاء آخر المعاني بمثابة القفل الذي يكون آخر ما يعلق في الذهن، وليزيل ما عساه علق في النفس من نزغ شياطين الإنس والجن بسبب شدة النصيحة، وليقطع على الظنون السيئة طريقها.

مقام نصيحته للخلفاء ومعرفته أقدار الرجال

النص الثاني: معرفة أبي عبيدة أقدار الرجال وعدم تقدمه عليهم

(روي أن أبا بكر رضي الله عنه قال لأبي عبيدة: هلم أبايعك، فإني سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول: إنك أمين هذه الأمة، فقال أبو عبيدة:(ما كنت لأفعل، أصلي بين يدي رجل أمره رسول الله –صلي الله عليه وسلم – فأمَّنا حتى قبض) [١].

هذا قول مهم يجري في سياق حدث زلزل أركان دولة الإسلام، فلم يعد تصوره ولا تصديقه بالأمر الهين حتى على كبار الصحابة، ألا وهو لحوق الحبيب المصطفى –صلي الله عليه وسلم – بالرفيق الأعلى، فأظلمت الدنيا كلها في وجوه الناس، يصدق ذلك قول أنس – رضي الله عنه – (لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله – صلي الله عليه وسلم–المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء) [٢].

وقيض الله للأمة في هذه المحنة رجلًا يزن إيمانه إيمان الأمة جمعاء، هو أبو بكر الصديق والذي فزع بالمسلمين إلى سرعة الإفاقة من هول الصدمة باختيار خليفة لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – عبورا بالأمة إلى مرافئ الأمان ومواصلة في إبلاغ دعوة الله للعالمين، والذي شق صخرَه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم.

فتسارعوا إلى ثقيفة بني ساعدة لاختيار خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فبادر أبو بكر إلى أبي عبيدة (هلم [٣] أبايعك...).

وهنا جاء ردُّ أبي عبيدة (ما كنت لأفعل) هكذا بتسليط لام الجحود على الفعل مبالغة منه ـ رضي الله عنه ـ في نفي هذا الامر نفيا قاطعا مؤكدا بلام الجحود؛ التي تأتي في النظم دلالة على المبالغة في التأكيد على النفي؛ ذلك أن (الجحود أخصُّ من النفي، لأن أصل وضع الصيغة الدلالة على أن ما بعد لام الجحود مناف لحقيقة اسم كان المنفية؛ فيكون حصوله كالمستحيل) [٤].

فمجيء لام الجحود قد زاد التركيب بلاغة لم تكن بغيرها؛ ويكتشف أبو حيان اللثام عن ذلك (فقولك: ما كان زيد ليقوم؛ أبلغ من: ما كان زيد يقوم؛ لأن في المثال الأول هو نفي للتهيئة وإرادة القيام؛ وفي الثاني: نفي للقيام؛ ونفي التهيئة والإرادة للفعل أبلغ من نفي الفعل، لأن نفي الفعل لا يستلزم نفي إرادته، ونفي التهيئة والصلاح والإرادة للفعل تستلزم نفي الفعل؛ فلذلك كان النفي مع لام الجحود أبلغ؛ وهكذا القول فيما ورد من

---

١) سير السلف الصالحين –إسماعيل بن محمد الاصبهاني–(ت:٥٣٥هـ) دار الراية للنشر والتوزيع –الرياض – تحقيق د: كرم حلمي أحمد

٢) الشمائل المحمدية – الترمذي – باب: ما جاء في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم – حديث ٣٨٠، صحيح ابن حبان –كتاب التاريخ – باب وفاته صلى الله عليه وسلم – حديث ٦٧٩٠

٣) هلم: اسم فعل أمر بمعنى: تعال.

٤) التحرير والتنوير – عند تفسير الأية ١٧٩ من آل عمران.

هذا النحو في القرآن وكلام العرب) [١] فلله درُّ ابي حيان على هذا التوجيه الرشيق! وشواهد لام الجحود في التنزيل كثيرة [٢]

- ويلاحظ أن أبا عبيدة حين نفي قبوله هذا العرض شفعه بالدليل "...أُصلي بين يدي رجل أمره الرسول صلى الله عليه وسلم" فجاءت هذه الجملة بمثابة البيان والتعليل للجملة قبلها وهكذا تتلاحم جمل التركيب وتتآزر.

ولعله في هذا ناظر إلى كلام أبي بكر–رضي الله عنه–الذي شفع مبايعته أبي عبيدة بالبرهان والحجة (فإني سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول: إنك أمين هذه الأمة).

واستصحاب البرهان ودمغ الكلام بالحجة في مثل هذه المقامات مما لا يخفى أثره وقوته فلا يُكتفى في مثل ما نحن فيه بغير هذا.

ويلاحظ حذف أن المصدرية من الفعل " أصلى" في الرواية التي معنا (أصلي بين يدي رجل...) وذكرها في رواية أخرى (أن أصلي) [٣] وأرى في حذفها هنا مسارعة منه رضي الله عنه إلى جملة (أصلى بين يدي رجل) فهي أسُّ الكلام ومعقد المعنى فيما أرى.

كما أن حذفها محاكاة لحذفها الواجب في الجملة الفائتة (ما كنت لأفعل) لكونها وقعت بعد لام الجحود؛ وهو أحد المواضع الخمسة الواجب حذف أن المصدرية فيها كما يذكر النحاة، وظاهر اقتباسه رضي الله عنه في قوله "بين يدي" من قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) [٤].

وفي قوله "بين يدي" مجاز مرسل علاقته المجاورة، فإن أصل التعبير بقولهم: بين يديه ما بين هاتين الجارحتين المعروفتين من الانسان؛ وتجوز بذلك في إرادة الجهتين المجاورتين ليمينه وشماله على سبيل المجاز المرسل والذي زاد التركيب جمالا ورونقا لم يكن في مثل قولنا (أُصلى أمام فلان؟).

ثم إن التعبير بقوله (بين يدي...) تأكيد على المبالغة في النفي من جهة أخرى، فإذا نُفيت الصلاة بين يدي أبي بكر، فنفي الصلاة أمامه من باب أولى، والتعبير كاشف عن مدى تقديره رضي الله عنه لأبي بكر ومعرفته لقدره إذ ينفي مجرد صلاته بين يديه – رضي الله عنهما – فكيف يمكن له التقدم عليه!

---

١) البحر المحيط ٤٦٨/١ عند تفسير الآية ١٤٣ البقرة.

٢) من ذلك قوله تعالى (ما كان لبشر ان يؤتيه الله الحلم والنبوة ثم يقول للناس....) "ال عمران ٧٩" – (وقوله ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث....) " آل عمران ١٧٩"، وقوله (ما كان لنبي أن يغلّ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) " آل عمران١٦١" وقوله (... لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) النساء١٣٧.

٣) رواية ابن عساكر.

٤) الحجرات ١.

ثم يأتي التعبير بلفظة "رجل" منكَّرة للدلالة على الكمال والبلوغ في الرجولة الدرجة الأسمى، وفي قول أبي عبيدة (أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمنا) حذف تقديره: (أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يؤمنا فأمنا) فجاءت جملة "فأمنا" كاشفة للحذف ودالة عليه؛ وتبرز ملاحة الحذف هنا من كونه احتراما لعقل السامع وتعويلا عليه في فهم المحذوف وإشراكا له في التفاعل مع التركيب.

ثم تأتى جملة "حتى قُبض" – وكان يمكن الاستغناء عنها – للتأكيد على أن خلافة أبي بكر للرسول صلي الله عليه وسلم امتدت زمنا ولم يكن تفويضا عابرا؛ وهذا آكد في أحقية أبي بكر بالخلافة فهو بها أولى.

ثم انظر إلى الالتفات الرائق من الخطاب" أن أصلي بين يديك" إلى الغيبة "أن أصلي بين يدي رجل".

وفوق ما في الالتفات من شجاعة وتصيير الكلام كأنه كائن حي يتحرك ويلتفت؛ ولفت لانتباه السامع وقطع لسآمته وملله.

أقول إن الالتفات هنا يكشف أيضا عن مدي تقدير أبي عبيدة وتوقيره لأبي بكر–رضي الله عنه –حيث لم يُرد أبو عبيدة أن يواجهه بالكلام كفاحا هكذا بضمير الخطاب "...أُصلي بين يديك".

- فأبو عبيدة يرى مكانة أبي بكر وقدره أعلى من أن يوجه إليه الكلام بضمير الخطاب فالتفت إلى الغيبة التي أفادت أن أبا بكر رجل يستحق هذا التقدير والتبجيل وزيادة في نفس المتكلم. ونجد أبا عبيدة يخص خلافة أبي بكر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة دون غيرها من عظائم شمائل أبي بكر؛ فهو أول من أسلم من الرجال، وهو صاحب رسول الله في الغار وهو من لقبه القرآن بالصديق على قول جمهرة أهل العلم (والذي جاء بالصدق وصدق به) [1].
- أقول خصَّ أبو عبيدة خلافة أبي بكر في الصلاة بالذكر تأكيدا على منزلة الصلاة في حياة الفرد والأمة وتقريرا لما ذكره عمر- رضي الله عنه - في السياق ذاته (يا معشر الأنصار ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس، فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر، فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر) [2] وتالله إنه لقياس بديع!!

مقام نصيحته للخلفاء ومعرفته أقدار الرجال

النص الثالث:

(عَنْ عِيسَى بْنِ أَبِي عَطَاءٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ يَوْمًا وَهُوَ يَذْكُرُ عُمَرَ فَقَالَ: «إِنْ مَاتَ عُمَرُ رَقَّ الْإِسْلَامُ، مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ مَا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَوْ تَغْرُبُ وَأَنِّي أَبْقَى بَعْدَ عُمَرَ»، قَالَ قَائِلٌ: وَلِمَ؟ قَالَ:

---

١) الزمر ٣٣

٢) البداية والنهاية – فصل خلافة أبي بكر رضي الله عنه –٥/٢٤٦

سَتَرَوْنَ مَا أَقُولُ إِنْ بَقِيتُمْ، أَمَا هُوَ فَإِنْ وَلِيَ وَالٍ بَعْدَ عُمَرَ فَأَخَذَهُمْ بِمَا كَانَ عُمَرُ يَأْخُذُهُمْ بِهِ لَمْ يُطِعْ لَهُ النَّاسُ بِذَلِكَ وَلَمْ يَحْمِلُوهُ، وَإِنْ ضَعُفَ عَنْهُمْ قَتَلُوهُ" (١).

يجري هذا النص في مقام حسن معرفة سيدنا أبي عبيدة – رضي الله عنه –لأقدار الرجال وإكبارهم وتزكية أحوالهم، وذلك لا يصدر إلا من قلب سليم وطبع صاف كريم ونفس سوية، محبة للخير، مؤثرة للغير، وقديما قالوا: لا يعرف أقدار الرجال إلا الرجال، وقليل ذلك في دنيا الناس إلا من رحم ربي وأسال الله أن يطهر قلوبنا وأن يزكي جوارحنا.

وأول ما يجذب الانتباه في هذا النص الكريم هو: تعبيره رضي الله عنه – بإنْ الشرطية، المفيدة ندرة وقوع شرطها–في جانب موت سيدنا عمر، وهو أمر محقق الوقوع، فكل نفس ذائقة الموت، وهذا بيان القران مخاطبا خير الخلق أجمعين – صلي الله علية وسلم–بقوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾(٢).

وأري أن التعبير بإن الشرطية هنا مقام "إذا" المفيدة أن ما دخلت عليه متوقع، جاء كاشفا عن الحالة النفسية، ومبينا عن عدم رغبة سيدنا أبي عبيدة في وقوع هذا الشرط "الموت" علي سيدنا عمر –رغم كونه حقا ويقينا علي كل نفس، و العبارة بهذا فيها رائحة دعاء لسيدنا عمر بطول العمر في طاعة الله وعزِّ الإسلام والمسلمين، والعبارة هنا أراها من قبيل قولهم "لا قدر الله".

- ثم أبان سيدنا أبو عبيدة–رضي الله عنه–عن وجه من وجوه كراهيته موت سيدنا عمر –رضي الله عنه– بقوله "إن مات عمر رقَّ الإسلام"، وانظر الي جمال الاستعارة المكنية هنا، حيث شبَّه الإسلام بشيء يرق حاله بسبب ما يُنال منه ومن كثرة طوارقه والطرق عليه، وقد نقلت الصورة البيانية الماتعة هنا الشيء المعنوي إلى عالم الحسّ المشاهد في صورة تنخلع لها القلوب خوفا عليه ونصرة له.
- والاستعارة المكنية هنا مناسبة كما عُرف عن سيدنا عمر –رضي الله عنه–من الشدة التي أعز الله تعالي بها الدين وأيده وقواه، فالرقة ضدّ الشدة، فكأن الإسلام بموت عمر –رضي الله عنه–ينتقل من الضد إلى الضدّ، ولذا كره أبوعبيدة رضي الله عنه البقاء بعده، حتى لا يرى الإسلام وهو ينتقل من القوة والشدة إلى الضعف والرقة.

وتلك منقبة لسيدنا عمر ومنقبة لسيدنا أبي عبيدة –رضي الله عنهما – وهي دالة كذلك على مزيد محبة أبي عبيدة للفاروق عمر لتآلف الأرواح والخِلال، وهكذا تألف النسورُ النسورَ، وكل شبيه منجذب إلى شبيهه، وكل أليف منسجم مع أليفه.

---

١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٨٤/٣ – باب: ذكر استخلاف عمر رحمه الله.

٢) الأنبياء ٣٤

- وترتيبًا لنتائج الكلام على مقدماته، يُفصح –رضي الله عنه –عن رغبته ورجائه الشديد ألا وهي: "ما أُحبُّ أن لي ما تطلع عليه الشمس"، وتبدأ الجملة بـ "ما" النافية – دون غيرها من النوافي على كثرتها – دلالة على صدق رغبته وشدة رجائه، ثم ما يفيده تقديم ما حقة التأخير، أعني الجار والمجرور (لي) من قصر وحصر، فلو قُدر أن لي وحدي – دون غيري –ما تطلع عليه الشمس أو تغرب ما أحببتُ البقاء بعد عمر.
- وطالع جمال تعبيره بالمضارع (تطلع) دون الماضي (طَلَعتْ) الذي كثر دورانه في بيان النبوة [١].

وذلك للدلالة على المبالغة في صدق هذه الرغبة، وقوة حبه عدم البقاء بعد عمر، حتى لو كان له ما طلعت عليه الشمس في الماضي وتطلع عليه في الحاضر والمستقبل، وكذا الحال في "تغرب".

كما يطالعنا جمال التعبير "بالسين" دون "سوف" في قوله: "سترون ما أقول لكم" دلالة على قصر الوقت، ثقة منه –رضي الله عنه–رضي الله عنه–في قرب وقت ما ينذرهم به من عاقبة موت عمر، وأن ما ينبئهم به يرونه بعيدا ويراه هو –رضي الله عنه–قريبا.

- ثم يؤثر تقييد الشرط بـ "إنْ" في جانبهم بقوله: (إن بقيتم) دلالة على عدم ضمانه بقائهم بعد موت عمر طويلا، ويمكن أن يفهم ذلك من عدة زوايا:
- من زاوية أن الموت حق مقدور على كل نفس، وأن الحياة عرّض وارتحال، والموت هو الأصل بدليل تقديمه في قوله تعالي (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) [٢] لذا عَبر في جانب بقائهم بـ "إن الشرطية" المفيدة ندرة وقوع ما دخلت عليه، فضلا عن أن الموت غيب اختص الله بعلمه، فناسبه التعبير بـ "إن الشرطية" دون "إذا" المفيدة تحقق بقائهم وغلبته وهو مالا يملكه مخلوق.
- ويمكن أن يفهم ذلك من جهة ثانية وهي: أن ما ينال الاسلام والمسلمين من موت عمر يجعل بقاءهم في حكم الموت، بل هو والموت سواء.
- ويمكن أن يُفهم قوله هنا في ضوء قول الله تعالي "أفإن متَّ فهم الخالدون"، وفي سياق قول الصحابي يوم أحد وقد أشيع مقتل النبي صلي الله عليه وسلم (فما قيمة الحياة بعده، قوموا فموتوا على ما مات عليه نبيكم) [٣].
- ولم يكتف –رضي الله عنه –بإيثار إنْ الشرطية مع بقائهم، بل فرضه واقعا، وتعامل معه وذلك حين ألتفت بكلامه –رضي الله عنه–من الخطاب إلي الغيبية، وذلك في قوله:(.....فأخذهم بما كان عمر

---

١) من ذلك حديث (لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس)

٢) الملك ٢

٣) سيرة ابن هشام: غزوة أحد

يأخذهم به) بدلا من (يأخذكم به) فهو يكلمهم عن مصير أقوام بعدهم، وكأن مخاطبيه صاروا أثرا بعد عين، ولحقوا بعمر رضي الله عنه حقيقية أو مجازا.

- واللافت للانتباه أن قوله –رضي الله عنه –(سترون ما أقول إنْ بقيتم) جاء معترضا بين سؤالهم (ولم؟) وجوابه (أما: فإن ولي...) وفائدة هذا الاعتراض هو المسارعة إلى تأكيد مضمون كلامه السابق وإزالة ما قد يثيره سؤالهم من استغراب.

ثم يأتي جوابه –رضي الله عنه–(أما هو فإن ولي وال بعد عمر...) بهذا التفصيل المبين، والاستدلال الدامغ الدافع شافيا لغلة سؤالهم.

مقام نصيحته للخلفاء ومعرفته أقدار الرجال

النص الرابع:

(... يقولون إن ولاية أبي عبيدة الشام أتته والناس محاصرون دمشق فكتمها خالدا أياما، لأن خالدا كان أمير الناس في الحرب فقال له خالد: ما دعاك – رحمك الله – إلى ما فعلت؟ قال: (كرهتُ أن أكسرك وأنت بإزاء عدو) [١].

هذا النص مُبين عن وجه مشرق آخر من نفس أبي عبيدة وعقله، فقد جاءه أمر خليفة المسلمين عمر بتكليفه أميرا على الشام خلفا لخالد بن الوليد، فكتمه أبو عبيدة عن خالد فترة وحين علم خالد به سأله: ما حملك على أن تكتم هذا الأمر عني يا أبا عبيدة؟ فأجابه – رضي الله عنه – بقوله: "كرهتُ أن أكسرك"

وتستوقفنا في هذه الجملة عدة ملحوظات:

أ) تعبيره – رضي الله عنه – بالكراهية دون غيرها، وتأمل ظلالها يكشف لنا ما جُبلت عليه نفسه – رضي الله عنه –من كراهية كسر الغير، أو إيذائه بأي مظهر كان، أو إضعاف أمره، لا سيما في مثل هذه الظروف، فالكراهية تعني: (ما يَكْرَهُهُ الإنسان ويشقُّ عليه) [٢] فما بالك إذا كان ذلك مع سيدنا خالد رضي الله عنه!! فأفصح التعبير بها هنا عن مشقة كسر أمر خالد وشدته على نفس أبي عبيدة.

ب) التعبير بالمصدر المؤول "أن أكسرك: دون الصريح كسرك"، وذلك لأن التعبير بالصريح يفيد الحدث فقط، يعني مجردا من الزمان، بينما يفيد التعبير بالمؤول الحدث وزمانه معه، فأفاد التعبير بالمصدر المؤول في كلام أبي عبيدة هنا: أنه كره كسره ومستمر على ذلك حاضرا ومستقبلا، وأن كره أبي عبيدة كسر خالد ليس حالة أو أمر عرضيا مرتبط بموقف ومقام، بل هو مبدأ ثابت وحالة دائمة

١) فتوح البلدان –البَلَاذُري (ت ٢٧٩هـ) الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت –١٩٨٨ م –١١٨/١(يوم فحل من الأردن)

٢) لسان العرب: كره

وفي هذا من سلامة الصدر وصفاء السريرة وبذل الحب والود والوفاء له بحق إمارته عليه، ومن قبلها بحق الأخوة بينهما ما فيه!!

- وفي تعبيره رضي الله عنه بـ "الكسر" هنا مجاز، حيث استعار الكسر وهو للمحسوسات لإضعاف الروح المعنوية لسيدنا خالد رضي الله عنه فهي استعارة تصريحية تبعية في الفعل، وقد كشفت الاستعارة هنا عن قيمة الحفاظ على الروح المعنوية وسد كل باب إلى النيل منها، لاسيما في مثل هذا المقام، واعتبار مجرد إضعافها كسرا لها، ككسر الشيء المادي كسرا لا ينجبر.
- وما قيل في التعبير بالمصدر المؤول هنا يقال في قوله: (وأوهن أمرك)، وتأمل تعبيره بـ "الوهن"، وما يشيعه من نفور نفس، فالتعبير بالوهن – دون غيره –أكسب الأسلوب والمعنى طلاوة، لأن الوهن في لغة العرب يعني: (الضَّعف في العمل والأَمر) [1] فليس ضعفا في جانب واحد، بل في جوانب متعددة.
- ثم تأتي جملة القيد (وأنت بإزاء عدو) لتكسو لأسلوب بهاء، فلئن كان كسر خالد وإضعاف أمره مكروها – عند أبي عبيدة – في عموم الأحوال فلهو أشد كراهة في هذه الحالة، لكون خالد في مواجهة العدو وقبالته، ثم ليس عدوا هينا ولا سهلا.
- وهذا الموقف مبين عن علو فقه أبي عبيدة رضي الله عنه – وحكمته، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا!
- فالنفوس الكبيرة تشغلها مصلحة الأمة عن حظوظ أنفسهم، والقيادة والزعامة والرئاسة إذا تعارضت مع مصلحة الأمة قدمت مصلحة الأمة، لأن حظوظ النفس زائلة ومصلحة الأمة باقية، وحظوظ النفوس خاصة ومصلحة الأمة عامة.
- فللّه درك يا أبا عبيدة! ولله در كلمتك العالية التي تكتب بذوب التبر لا بالحبر! ولله تلك النفوس التي تقدم حظ الأمة ومصلحتها على حظوظها ومصلحتها! وتعسا لتلك النفوس التي تقدم مصلحتها على مصلحة الأمة.
- آه من هذه الكلمة آه!! فما أسعد الأمم التي فيها رجال يقدمون همَّ الأمة وشأنها!
- وما أتعس الأمم التي فيها رجال يقدمون همومهم وحظوظ أنفسهم على هموم الأمة وحظوظها!
- وقد فتح أبوعبيدة بقولته هذه بابا لا تنفدُّ معانيه ولا مغانيه.
- الأمر الذي يجعلنا نردد: إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الجارحي [2].

---

١) لسان العرب: وهن

٢) أعني: ابن الجراح، لسلامة وزن البيت، لكونه من البحر الكامل.

المبحث الرابع: مقام: الفتوحات والجهاد

النص الأول: تحليل كتاب أبي عبيدة لأهل بعلبك

كتب أبو عبيدة رضي الله عنه إلى أهل بعلبك كتابا يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم

من أمير جيوش المسلمين بالشام وخليفة أمير المؤمنين فيهم أبو عبيدة بن الجراح إلى أهل بعلبك من المخالفين والمعاندين أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى وله الحمد أظهر الدين وأعز أولياءه المؤمنين على جنود الكافرين وفتح عليهم البلاد وأذل أهل الفساد وأن كتابنا هذا معذرة بيننا وبينكم وتقدمة إلى كبيركم وصغيركم لانا قوم لا نرى في ديننا البغي وما كنا بالذين نقاتلكم حتى نعلم ما عندكم وأن دخلتم فيما دخل فيه المدن من قبلكم من الصلح والأمان صالحناكم وأن أردتم الذمام ذممناكم وأن أبيتم إلا القتال استعنا عليكم بالله وحاربناكم.

فأسرعوا بالجواب والسلام على من اتبع الهدى ثم كتب: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ طه:٤٨ [١].

هذا النص من كلام سيدنا أبي عبيدة ـ رضي الله عنه ـ نموذج ثرّ، وكاشف عن سمات كلامه وشخصيته.

ومناسبة النصّ جلية، فقد كتبه رضي الله عنه إلى أهل بعلبك – من أعمال الشام – إبان فتح الأخيار لها زمن العزة والسيادة ونشر كلمة الله في العالمين وإبلاغ دينه تعالى في الآفاق.

وافتتاح الكتاب بما افتتح به من قوله (من أمير جيوش المسلمين بالشام...) لهو دليل عزة وعنوان كرامة واعتزاز، وهو جدّ مهم في مثل هذه المواطن، إظهارا لعزة الدين ورفعته وكسرا لشوكة الخصم وتحطيما لمعنوياته، فهو داخل في باب "إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن"[٢] وكذا باب "رحم الله امرء أراهم من نفسه اليوم قوة" [٣].

فضلا عما في هذا الابتداء من التبيين والتوضيح لجهة صدور هذا الكتاب، فهو من خليفة أمير المؤمنين وأمير جيوشه في الشام، وهذا التبيين والتوضيح أراه صورة من صور العدل الذي ينشده أبو عبيدة رضي الله عنه في غير موضع من كتابه هذا تحديدًا.

وهو تقوية – كذلك – من طرف خفي لقوله لاحقا في الكتاب نفسه (لأننا قوم لا نرى في ديننا البغي).

ثم يأتي قوله ـ رضي الله عنه ـ "أهل بعلبك من المخالفين والمعاندين" احتراز بديع، لما فيه من بيان سبب الكتابة إليهم ومحاربته إياهم إن لزم الأمر ودعت الحاجة، وفيه كذلك تنزيه لساحة الإسلام من التعرض لغير

---

١) فتوح الشام –الواقدي (ت: ٢٠٧هـ) نشر: دار الكتب العلمية –ط أولى – ١٤١٧هـ –١٩٩٧ – باب جبلة يحارب خالدا ١١٩/١

٢) سير أعلام النبلاء ٢٤٥/١

٣) تاريخ الطبري ١٤٢/٢

المخالف والمعاند، وهو معنى ناظر إلى قوله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين)[1] فضلًا عما في نعتهم بالمخالفة والمعاندة من التشنيع عليهم وتقبيح فعالهم.

ثم تأتي الجملة الاعتراضية الدعائية "وله الحمد" لتردَّ الفضل إلى أصله، وتخلع النفس من حولها وطولها إلى حول الله وطوله، فله تعالى الحمد كله أولًا وآخرا.

فضلا عما بُنيت عليه هذه الجملة الدعائية من صيغة القصر – بتقديم ما حقه التأخير – قصرا وحصرا للحمد على الله جل جلاله أهل كل حمد وإليه تعالى يرجع كل فضل.

وهو خُلقٌ جليّ في شخصية سيدنا أبي عبيدة يُسفر عنه بيانه كثيرا، أعني خُلق: ردّ الأمر كله لله واللوذ بجنابه واستحضار عظمته تعالى في كل موقف، وهضم حظوظ نفسه – رضي الله عنه –في أي موقف.

وكما أسلفت فإن خير البيان ما أفصح عن سمات قائله، فالرجل هو الأسلوب كما يقولون.

وقوله رضي الله عنه "أظهر الدين.. أعز أولياءه" فيه بيان لقهر الله وعلو دينه وغلبة أمره جلت قدرته، وفيه كذلك تحطيم لمعنويات الخصم.

وكما أفصحت جملة "وله الحمد": عن مصدر هذا النصر والتأييد وهو الله جل جلاله، فإن جملة "وأعز أولياءه المؤمنين على جنود الكافرين" قد أبانت عن جهة استحقاق ذلك النصر وسبب تلكم العزة بكونهم "أولاء المؤمنين" وأن مخالفيهم هم "جنود الكافرين" وهكذا يتبين كيف تتناسل الجمل ويتفرع بعضها عن بعض!

وفيه تحدي للمخالفين إذ من يقدر على أولياء الله المؤمنين! والله مظهرهم بدينه ويحفهم بعزته.

ثم هذا التضاد البديع الكاشف عن حال كل فريق وذلك قوله: "فتح عليهم البلاد.. أذل أهل الفساد"

ففريق يتنعم ويتمرغ في فتوحات الله شاكرين لأنعمه وحُق لهم فهُم أولياؤه، وفريق يتجرعون كؤوس الذل والصغار بفسادهم واتباعهم غير سبيل المؤمنين، وما ربك بظلام للعبيد.

ثم يأتي قوله "وأن كتابنا هذا معذرة بيننا وبينكم..." كاشفا عن وجه هذا الدين الأزهر وجبينه الأنور في أصعب المواقف وأحلكها، وهو موقف المفاصلة مع الأعداء، فلا غدر.. ولا خيانة.. بل مكاشفة ومصارحة وإعلان للحرب متى دعى داعيها، والإلقاء بهذا الإعلان في وجه الخصم – لا في ظهره – بعد إنذاره بها.

فديننا يملك من شرف الخصومة وكمال الرجولة وتمام الشجاعة ما يدفعه إلى إعلان موقفه من أعدائه.

ومن توجيهات ديننا الحنيف في هذا المقام: وصيته صلى الله عليه وسلم لقادة جيوشه حين يخرجون للغزو في سبيل الله ومنها وصيته صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عندما أرسله في شعبان سنة

---

١) الممتحنة ٨

٦هـ إلى قبيلة كلب النصرانية الواقعة بدومة الجندل؛ فقال له: (اغزوا جميعًا في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تَغُلُّوا، ولا تَغْدِرُوا، ولا تُمَثِّلُوا، ولا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، فهذا عَهْدُ اللهِ وسيرة نبيّه فيكم)[١].

وعَنِ ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا بَعَثَ جُيُوشَهُ قَالَ: "اخْرُجُوا بِسْمِ اللَّهِ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ لَا تَغْدِرُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ)[٢].

وأما قوله – رضي الله عنه – "لأنا قوم نرى في ديننا" فتفصيل بعد إجمال لقوله: كتابنا هذا معذرة وبينكم" وهو بمثابة حسن التعليل لإرساله رضي الله عنه هذا الكتاب.

وفي قوله "وإن دخلتم فيما دخل فيه المدن قبلكم" شرح وتوضيح لموقف الدين من إعلان الحرب على خصمه، وهو مقام يستدعي هذه الإبانة، إقامة للحجة على المخالف.

كما فيه إغراء –من وجه آخر –على الدخول فيما دخل فيه المدن قبلهم من الصلح والأمان، ويا لجمال تعبيره رضي الله عنه – "وإن دخلتم فيما دخل فيه المدن قبلكم" بحذف المضاف، والتقدير: فيما دخل فيه أهل المدن" مبالغة على أن الداخل في أمان المسلمين وعهدهم ليسوا البشر فحسب، بل المدن نفسها وأن هذا الأمان والصلح بلغ من السعة والنفع والشيوع حتى شمل المدن نفسها، فلا يكونوا – وهم العقلاء– أقل حظا من الفهم والتدبر من المدن. ولعل التركيب هنا ناظر إلى قوله تعالى ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾[٣].

ففي التعبير تحريض لأهل بعلبك على أن يسلكوا سبيل من سبقهم.

كما يبين هذا القول عن حرص الإسلام على عدم إراقة الدماء وتجنب سفكها ما وجد إلى ذلك سبيلا، خرسا لألسنة المتقولين عليه بهتانا وزورا.

يرشح هذا الفهم ويقويه الترتيب الذي جاءت عليه الجملة:

فقد بُدئت بالسعي إلى الصلح والأمان.. ثم ثنيت بالذمام، وهو خيار وسط بين سابقه ولاحقه، ثم خُتمت بالقتال، حالة رفض الخصم ما سلف، وإصراره على العداوة والمبارزة.

ثم انظر إلى قوله "استعنا عليكم بالله" وروعة تصديره قبل قوله "حاربناكم"، وكان يمكن القول "... حاربناكم مستعينين بالله عليكم" مثلا.

---

١) أحمد (٢٧٢٨)، البيهقي (١٧٩٣٣

٢) السيرة النبوية لابن هشام (ت:٢١٣هـ) ط: مصطفى الحلبي – ط: الثانية، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥ م تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ج ٦١٦/١، ٦١٧، البداية والنهاية: ابن كثير –٢٩٤/٣

٣) يوسف ٨٢

ولو فعل لفاتت زهرة الربيع الفائحة في شخصية أبي عبيدة، وأعني بها: منزلة استشعاره رضي الله عنه معية الله واستصحابها في كل حال، وعدم فكاكه عن الاستعانة بالله جل جلاله في كل شأنه، فهو جلت قدرته الحاضر الذي لا يغيب في قلوب وعقول أمثال هؤلاء البررة، وتلك سمة بارزة في شخصية أبي عبيدة أفصح عنها بيانه في غير موضع.

ثم يأتي قوله رضي الله عنه "استعنا عليكم بالله" لينمّ من جهة أخرى عن إرهاب هؤلاء الخصوم والفتّ من عزائمهم، فأنّ لهم بقوم استعانوا بالله فأعانهم! أين قوتهم من قوة الله! بل أين قوة الخلق جميعا من قوة جند واحد من جنود الله! وما يعلم جنود ربك إلا هو

وقول أبي عبيدة هذا "استعنا بالله عليكم" يمكن التفريع منه عدة تفريعات:

فهو يعني أننا نعترف بضعفنا، ولكننا نستمد القوة من الله جلت قدرته، وهذا تواضع وانكسار لله تعالى من القائد الرباني أبي عبيدة رضي الله عنه، وهو جزء من سمت شخصيته كما سلف.

ويعني كذلك أننا لا قبل لكم بنا ولا بقتالنا، لأننا استعنا بالله عليكم، ومن استعان بالله أعانه، فأنى لكم بقوم استعانوا بالله؟!

لا ريب أن النصر حليفهم لأن الله ناصرهم "إن ينصركم الله فلا غالب لكم" [1] كما يقويه وصية عمر رضي الله عنه لجنده (أما بعد، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب،... اسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم، والله ولي أمرك ومن معك، وولي النصر لكم على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم والله المستعان) [2].

كما في هذا القول رفع لمعنويات أصحاب سيدنا أبي عبيدة ورفقاء جهاده، لأن الاستعانة بالله وطلب المدد منه – تعالى – هي جيش مع الجيش، بل هي الجيش وعين النصر، مصداقا لقوله تعالى ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾[3].

ثم انظر إلى تقديم الجار والمجرور (عليكم) وما يفيده هذا التقديم من حصر دال على أن استعانة المسلمين بالله كأنها مُسلطة على المخالفين من أهل بلعبك محصورة فيهم، وكأنهم العدو الأوحد، وفي هذا من التبشيع ما لا يخفى، وكان يمكن قوله "استعنا بالله عليكم" ولكن ستضيع معه كل هذه اللطائف.

ثم تأتي "الفاء" في قوله "فأسرعوا بالجواب" حاملة معها كل معاني العزة بالإسلام والاستعلاء بالحقّ.

---

١) آل عمران ١٦٠

٢) تاريخ الطبري ٣/٤٨١

٣) الأنفال ١٧.

ثم يرتفع البيان في سماء البلاغة بهذين الاقتباسين القرآنيين: (والسلام على من اتبع الهدى) (إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) وجاء إيرادهما تذييلا لهذا الكتاب في حاق موضعهما.

وبإنعام النظر في الاقتباس الأول "والسلام على من اتبع الهدى" يطالعنا هذا الاحتراز والتقييد البديع حين صرف السلام –ومعناه: السلم والأمن وكف الأذى، والسلامة من الشرور –جعل ذلك كله منصرفا إلى من اتبع الهدى فحسب، إذن فالسلام هنا ليس مطلقا بل هو متجه إلى من اتبع الهدى، والهدى المراد هو ما نصت عليه الآية الكريمة " قل إن هدى الله هو الهدى)[١].

وبناء الجملة على هذا الاحتراز وتقييدها السلام باتباع الهدى، يحمل في طياته تحفيزا وإغراء لأهل بعلبك بالدخول في هذا الهدى لضمان سلامهم، وفي هذا تأكيد من جهة أخرى على صيانة الإسلام للدماء.

كما في بناء الجملة على هذا النسق أيضا تحذير وتهديد لمن حاد عن طريق الهدى واتبع غير سبيله، بأنه لن ينعم بسلام أو تهنأ نفسه بأمان.

وتعد هذه الجملة من النمط العالي الرفيع لكونها مكتنزة بالمعاني، من حيث أتيتها جنيت من وارف ظلالها.

(... ووصل المعاهد إلى عسكر المسلمين وأتى أبا عبيدة رضي الله عنه وحدثه بما كان من القوم وقال: أيها الأمير أن أكثر القوم عولوا على القتال فقال أبو عبيدة –رضي الله عنه للمسلمين: شدّوا عليهم، واعلموا أن هذه المدينة في وسط أعمالكم وبلادكم، فإن بقيتْ كانت وبالا على من صالحتم ولا تقدرون على سفر ولا على غيره).

ويلاحظ في قول أبي عبيدة هنا للمسلمين (شدوا عليهم) أن الشدة على أعداء الله ورسوله سمة ظاهرة في بيانه ـ رضي الله عنه – مقابل ذلته وخفض جناحه للمؤمنين، وأراها من مقتضيات ولوازم نعته بأمين الأمة.

ثم في تعبيره رضي الله عنه بـ (شدوا) ما يومئ إلى مدى أسفه وحزنه من أهل بعلبك حين فوتوا على أنفسهم فرصة الدخول فيما دخل فيه المدن قبلهم، وعصمتهم دمائهم وأموالهم وذراريهم، وتعويلهم على القتال والمواجهة، وقوله هنا (شدوا عليهم) ناظر إلى قوله تعالى على لسان كليمه موسى عليه السلام في دعائه على فرعون وملائه المتكبرين المتغطرسين ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾[٢] وصياغة الدعاء كاشفة عما كان يضطرم به صدر الكليم موسى عليه السلام من أسى وأسف وحزن، فهذا من ذاك.

وأسف أبي عبيدة وأساه من إيثار أهل بعلبك القتال كاشف من جهة أخرى عن مدى سماحة نفسه وصفاء طبعه، حيث كان يود لهم الأبرّ بهم والأنفع لهم، ومدى كرهه رضي الله عنه لإراقة الدماء [٣].

---

١) آل عمران ٧٣.

٢) يونس ٨٨

٣) سيأتي نوع من التفصيل في السياق ذاته نهاية هذا المقام

فهو- رضي الله عنه- ما كان يرضى ذلك لهم، لكنهم رضوه وآثروه.

وعلى حدّ قول الكميت الأسدي: وإن لم يكن إلا الأسنة مركب فلا رأي للمحمول إلا ركوبها [1].

كما يلاحظ في توجيه أبي عبيدة هنا للمسلمين بالشدّ على مخالفيهم استصحاب ذلك التوجيه والأمر لسببه، فلم يشأ أن يعطيهم الأمر هكذا مجملًا، بل شفعه بعلته (اعلموا أن هذه المدينة في وسط أعمالكم وبلادكم، فإن بقيت كانت وبالا...) وفي ذلك من رفع قناعة الجنود، وتبنيهم للأمر الصادر من قائدهم ما فيه، وفي هذا إغراء لكل قائد وراع ومسؤول أن يحذو حذو أمين الأمة- رضي الله عنه.

ولما أخذت الحرب مأخذها وطحنت رجالها (أصيب من المسلمين اثنا عشر رجلا وأصيب من الروم على السور خلق كثير من أهل الحرب وغيرهم وانصرف المسلمون إلى رحالهم وما لهم همة إلى الطعام ولا الشراب ولا يريد أحد منا إلا الاصطلاء بالنار من شدة البرد قال فبينما نحن ليلتنا نوقد النار ونتناوب في الحرس إلى الصباح فلما صلينا الفجر نادى مناد من قبل أبي عبيدة رضي الله عنه يقول:

عزيمة مني على كل رجل من المسلمين لا يبرز إلى حرب هؤلاء القوم حتى ينفذ إلى رحله ويصلح له طعاما حارا يأكله ليكون بذلك شديدا على لقاء العدو قال فابتدرنا لإصلاح أمورنا... فنظرت إلى خيل الروم متفرقة والأمير أبوعبيدة قد نصب رايته والناس يهرعون إليها وأن أبا عبيدة رضي الله عنه ينادي برفيع صوته: اليوم يوم له ما بعده.

.... وأقبلت رؤساء المسلمين إلى الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه وقالوا: أيها الأمير ما الذي قد عزمت عليه وما عندك من الرأي يرحمك الله فقال أبو عبيدة: رضي الله عنه

اعلموا أن من الرأي أن نتأخر عن المدينة مقدار شوط فرسخ ليكون ذلك مجالا لخيلكم ومنعة لحريمكم والنصر من عند الله تعالى) [2].

وفي عزيمة أبي عبيدة على جنوده بعدم البروز لأعدائهم حتى ينفذوا إلى رحالهم ويصلحوا طعاما حارا لهم (لكون البرد قارسا) يعينهم على لقاء عدوهم، تأكيد على ما سبقت الإشارة إليه من عزته وشدته على أعدائه، ورفقه وشفقته بإخوانه وجنوده، ومن العجيب أن يُكشف عن هذين الجانبين في شخصيته في بيان واحد كما هنا.

ثم نصب أبو عبيدة رآيته والناس يهرعون إليها وهو ينادي برفيع صوته: اليوم يوم له ما بعده، وهو قول منسوب للشاعر الجاهلي دريد بن الصمة، جرى مجرى المثل، ويضرب ليوم يكون فيه حدث جلل يؤثر فيما يليه من الأيام.

---

١) ديوان الكميت الأسدي ص٧١ من قصيدة مطلعها (ألا لا أرى الأيام يقضى عجيبها بطول ولا الأحداث تفنى خطوبها) تحقيق د محمد نبيل طريفي -دار صادر . ط أولى -سنة ٢٠٠٠م

٢) فتوح الشام ١١٩/١

وفي استدعاء سيدنا أبي عبيدة له هنا ما يدل على دقة الاستدلال وسعيه إلى رفع معنويات جنوده وتذكيرهم بأهمية اليوم وأثره فيما بعده على ما يحفه من مخاطر جسام وتضحيات غالية.

ولما حمي الوطيس ونظر أبو عبيدة إلى كثرة عدد العدو وعتاده، نادي برفيع صوته في أصحابه: (يا معاشر المسلمين لا تفشلوا فتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين)، ويستهل نصيحته بالنداء (يا معاشر المسلمين) استدعاء لانتباههم، ليقع ما يأتي من توجيه ونصح من نفوسهم –وقد تنبهت بالنداء – الموقع الأنفع والأرشد.

وفي قوله (لا تفشلوا فتذهب ريحكم.. واصبروا إن الله مع الصابرين) تأثر بالبيان القرآني صياغة ومقاما.

والمراد بالفشل: (الضعف عن جهاد العدو والانكسار لهم والجُبن)، وذهاب الريح بمعنى: حل عزائمهم وتفرق قوتهم ورفع ما وعدوا به من النصر [١].

- والسمة الغالبة في بيان أبي عبيدة – خاصة في هذا المقام – استحضار فضل الله والتحدث بنعمه دوما، فهو جل جلاله الحاضر الذي لا يغيب في وعيه – رضي الله عنه – وبيانه، وشواهد ذلك هنا كثيرة منها:
- قوله لرؤساء المسلمين الذين أقبلوا عليه يسألونه (أيها الأمير ما الذي قد عزمت عليه وما عندك من الرأي يرحمك الله فقال أبو عبيدة: (اعلموا أن من الرأي أن نتأخر عن المدينة مقدار شوط فرسخ ليكون ذلك مجالا نحيلكم ومنعة لحريمكم والنصر من عند الله تعالى).
- وكذا قوله لجنوده (واصبروا إن الله مع الصابرين).
- وقوله – حين جاءته البشرى – على لسان سعيد بن زيد – بمحاصرة جنوده لأعدائهم، فقال أبو عبيدة:(الحمد لله الذي هزمهم عن أوطانهم وجعلهم أشتاتا) [٢].
- ولما استدعى أبو عبيدة أحد جنوده "سهل بن صباح" لمخالفته أمر أبي عبيدة، واستمع إليه فقال أبو عبيدة (لقد وفقك الله تعالى إلى الجنة، فإياك بعدها أن تحدث حديثا من غير إذن أميرك) [٣].
- ولما أكثر المسلمون القتل في أعدائهم والجراح فتحصن الأعداء في الضيعة، وأحاط بهم المسلمون من كل جانب، وما تركوا منهم أحدا يخرج رأسه من كثرة النبل، فلما ورد الخبر إلى أبي عبيدة قال: (الحمد لله، معاشر الناس: ارجعوا إلى أموالكم واضربوا خيامكم حول المدينة، فإن الله عز وجل كاد عدوكم وهو منجز لنا ما وعدنا من نصره) [٤].

---

١) انظر تفسير الطبري والبغوي والسعدي عند قوله تعالى (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) الأنفال٤٦

٢) فتوح الشام ١/ ١٢١

٣) السابق

٤) السابق

ومن شواهد استحضاره جلال الله وفضله ونعمه عليهم قوله للبطريق – على لسان الترجمان (قل له: يا ويلك نحن معاشر المسلمين يُكثرنا الله تعالى في أعين المشركين ويمدنا بالملائكة كما فعل بنا يوم بدر وبذلك فتح الله تعالى بلادكم وحصونكم علينا وأذل ملوككم).

(فلما أخبر الترجمان الأمير أبا عبيدة رضي الله عنه بما قاله قال أبو عبيدة للترجمان: قل له: الحمد لله تعالى الذي ملكنا أرضكم وديياركم فلا بد أن تؤدوا الجزية وقد ظننت لنفسك أمانا كاذبا حتى أراك الله الذل والصغار بعد العز والاقتدار ولا بد لنا أن نملك مدينتكم إن شاء الله تعالى ونقتل الرجال ونأسر الأبطال فمن أراد حربنا وقتالنا فلا يدخل في صلحنا أبدا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) [1].

- ومن أبلغ تلك الشواهد على استحضاره معية الله تعالى ومراقبته في كل أحواله: وصيته لأميره على بعلبك فيما بعد "رافع بن عبد الله السهمي": (وإني آمرك بما أمرك الله به فاتق الله حق تقاته... والله تعالى خليفتي عليك) [2].

فهذا غيض من فيض ناطق بحضور لفظ الجلالة اسما ومقاما في عقل ووجدان أبي عبيدة رضي الله عنه.

وسبق لنا القول: إن شخصية أبي عبيدة لم تكن متعطشة فضلا عن أن تكون ساعية إلى إراقة الدماء، ومما يؤكد ذلك في السياق ذاته قول أبي عبيدة ردا على سؤال البطريق – عند التفاوض والصلح – أيها الأمير: انظر ما الذي تريد؟ فأجابه أبو عبيدة: (لو أن الله فتح على المسلمين من الصلح على هذه المدينة بملئها ذهبا وفضة ما كان أحب الي من سفك دم رجل واحد لكن الله تعالى اعطى الشهداء في الآخرة أكثر من ذلك) [3].

ومن سمات شخصيته رضي الله عنه "كما نطق به بيانه:

–احترامه للغير وحسن معرفته أقدار الرجال، ومن شواهد ذلك مما نحن بصدده هنا رده على مندوب الروم (توما) في التفاوض على الصلح، وقد صارح أبا عبيدة قائلا:

(...إني خائف من هذا الرجل – يعني خالدا بن الوليد – فليكتب لي بذلك قال أبو عبيدة: ثكلتك أمك، إنا معاشر العرب لا نغدر ولا نكذب، وأن الأمير أبا سليمان قوله قول وعهده عهد)

وتأمل تصدر رده – رضي الله عنه – بهذه الجملة "ثكلتك أمك" الكاشفة عما وراءها من شحنة نفسية غاضبة في صدر أبي عبيدة على مفاوضه، إذ كيف يدور بخلده مثل هذا الظن بعربي، فضلا عن كونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أتباع دين الوفاء بالعهود!

---

١) السابق ١٢١

٢) فتوح الشام (وسيأتي تحليل وصيته لأميره على بعلبك) ضمن هذه الدراسة

٣) السابق ١/ ١٢١.

ثم انظر –كذلك – إلى جمال تلطفه وكريم تأدبه مع أصحابه – لا سيما مَن كان في طبقة أبي سليمان خالد بن الوليد – فلم يصرح باسمه "خالد" مشاكلة لبيان مفاوضه، إنما ذكره بكنيته مسبوقة بوصفه "أن الأمير أبا سليمان"، ومعلوم أن التكنية باب عظيم من أبواب التبجيل والتوقير في لغة العرب، علما أن خالدا في هذا الوقت تحت إمرة أبي عبيدة!

فقوله – رضي الله عنه – هنا كاشف عن قوته في الحق وحسن معرفته بأقدار الرجال وتكنيته لخالد أمارة توقير واعتراف بفضله وسعيه بذمته، فرضي الله عنهم، وصلى الله وسلم وبارك على من رباهم.

وليس هذا الموقف الأوحد في هذا السياق – لا سيما مع سيدنا خالد–رضي الله عنهما، وأصبُّ تركيزي على سيدنا خالد هنا، لأن هذه الأحداث شهدت حدثا جللا كان يكفي لزلزلة كيان دولة الإسلام في هذا الظرف التاريخي شديد الحرج [١].

مقام: الفتوحات والجهاد

النص الثاني:

بعد أن تم الصلح بين أبي عبيدة وبين بطريق الروم في بعلبك، دعا رجلا من سادات قريش يُدعى "رافع بن عبد الله السهمي" وقال له: ((يا رافع بن عبد الله استعملتك على هذه المدينة وضم إليك خمسمائة فارس من بني عمك وعشيرتك وأربعمائة فارس من اخلاط المسلمين وإني آمرك بما أمرك الله به فاتق الله حق تقاته ولا تكن إلا من الولاة العادلين وإياك والظلم والجور فتحشر مع الظالمين واعلم أن الله تعالى سائلك عنهم ومطالبك بما تصنع بغير الحق واعلم إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أن الله تبارك وتعالى أوحي إلى موسى بن عمران عليه السلام أن يا موسى لا تظلم عبادي أخرب بيتك من نفسك" فأقم الأرصاد في أطراف البلاد فانك بين أعدائك وبعد هذا ما عرفتك إلا استيقاظا وأحذرك من السواحل وشن الغارة عليهم ولتكن غارتك في المائة والمائتين ولا تمكن أحدا من المدينة يختلط بأصحابك في غارة حتى يطمع لا عدوكم فيه وأحسن معاملة من ساعدك وأصلح بينهم وأمرهم بالعدل وكن بينهم كأحدهم وأمر أصحابك ومن معك أن يكفوا أيديهم عن الفساد والظلم للرعية والله تعالى خليفتي عليك والسلام عليك)) [٢].

أول ما يسترعي الانتباه هنا هو استهلال أبي عبيدة وصيته بالتأكيد: (وإني)، ثم إيثار التعبير باسمية الجملة "آمرك" وذلك مبالغة منه – رضي الله عنه – في لفت انتباه المتلقي إلى أهمية الكلام الوارد.

١) سيأتي تفصيل في هذا عند تحليل قول أبي عبيدة لخالد (كرهت أن أكسرك وأوهن أمرك وأنت بإزاء عدو) من هذه الدراسة.

٢) فتوح الشام – الواقدي –١٣١/١(ذكر حديث نزول المسلمين على حمص)

ثم يُتبع أبو عبيدة هذا الحشد من التأكيد بإغراء مستمعه وحضه على سرعة الاستجابة والالتزام بما يأمره به، وذلك قوله (بما أمرك الله به) فما يأمره به أبو عبيدة إنما هو مما أمر الله به، والذي لا يسع المؤمن معه إلا أن يقول: سمعنا وأطعنا.

وفي هذا –من جانب آخر – بيان لما ذكرته مرارا من استحضار أبي عبيدة رضي الله عنه لجلال الله في كل مواقفه، وسرعة امتثاله لما أمر الله به، فهو جل جلاله الحاضر الذي لا يغيب في وعي أبي عبيدة وضميره، ومن كان في طبقته من الأخيار البررة.

ثم تأتي جملة القصر (ولا تكن إلا من الولاة العادلين) لتفيد عدم القبول بغير العدل من الولاة – خاصة – مهما كان السبب، وكأنه لا كينونة لهؤلاء الولاة ولا ينبغي أن تكون إلا بمقدار قيامهم بالعدل وتحقيقهم له وتجسيدهم إياه.

وكان يمكن أن يقول رضي الله عنه مثلا "وكُن من العادلين" وينتهي الأمر، لكنه كانت ستنتهي معه الكثير من المزايا التي تضمنتها جملة القصر هنا.

وأكاد أُجزم أن المعنى الرئيس القائم عليه الكلام هنا هو التشديد على "تحقيق العدل" فبه قامت السماوات والأرض.

يقوي هذا الجزم عندي قول أبي عبيدة لأميره:

١. "وإياك والظلم والجور فتحشر مع الظالمين" بعد قوله: "ولا تكن إلا من الولاة العادلين" وقد كان في هذه غناء عن تلك!
٢. كذلك يقويه قوله: "واعلم أن الله تعالى سائلك عنهم ومطالبك بما تصنع بغير الحق".
٣. كذا استدعاؤه وصية الله تعالى لكليمه موسى عليه السلام: "... يا موسى لا تظلم عبادي أخرب بيتك من نفسك".
٤. ومما يقوي ذلك عندي قوله أيضا: (وأمرهم بالعدل).
٥. ثم يأبى أبو عبيدة أن يختم تكليفه إلا بما بدأ به فيأتي قوله –رضي الله عنه: (وأمر أصحابك ومن معك أن يكفوا أيديهم عن الفساد والظلم للرعية).

لتأتي هذه الجملة بمثابة أحسن قُفل لتأكيد هذا المعنى الرئيس الذي قام عليه الكلام واحتشدت على تقريره خمس جمل، أعني (التشديد على أهمية العدل في عمارة البلدان)، على حد تبويب ابن خلدون في مقدمته (الظلم مؤذن بخراب العمران) [١].

---

١) مقدمة ابن خلدون –الفصل الثالث والرابعون

كما يدل تكليف أبي عبيدة لأميره هنا على خبرة أبي عبيدة القائد والأمير والمسؤول وهو ما يجب أن تكون مؤهلات القادة والمسؤولين، بعيدا عما زكمت به الأنوف في دنيا الناس من: نفاق ووصولية ومحسوبية وفهلوة صارت عنوان المرحلة التي نعيشها، الأمر الذي جعل الكثير من الأحرار وأسوياء النفس أن يصرخوا بأعلى أصواتهم مع أبي العلاء:

فيا موتُ زُرْ إن الحياةَ ذميمةٌ ويا نفس جدي إن دهرك هازل [١]

عودا إلى كلام أبي عبيدة لنقف على علو كفاءته وحسن خبرته وقيامه بواجبه خير قيام من خلال بيانه: (فأقم الأرصاد في أطراف البلاد) [٢].

ولم يشأ أبو عبيدة أن يُلقي الأمر هكذا، بل قرنه بعلته وسببه، حملا للمخاطب على الامتثال (فإنك بين أعدائك) فجاء التكليف مقترنا بحسن التعليل.

- ثم يأتي قوله:(وبعد هذا ما عرفتك إلا استيقاظا) (التعبير بالمصدر"استيقاظا" بدلا من اسم الفاعل "مستيقظا" مثلا، مبالغة في التأكيد على تمام الانتباه وأخذ الحيطة والحذر وكمال الاستيقاظ، حتى إنه ليتجسد ذلك الاستيقاظ، ويعرف به، فيكون حاله كله استيقاظا، ثم تتوالى نصائح أبي عبيدة وتوجيهاته لأميره (وأحذرك من السواحل وشن الغارة عليهم)، (ولا تمكن أحدا من المدينة يختلط بأصحابك في غارة حتى يطمع عدوكم فيه). لتبرز إحاطته – رضي الله عنه – بالواقع المحيط وكفاياته العالية كأمير ومسؤول.
- ثم يكشف بيانه عن جانب آخر من جوانب حياته وشخصيته، وذلك في توصيته أميره بأصحابه "كُن بينهم كأحدهم" وهو كاشف عن حال أبي عبيدة نفسه مع أصحابه.

مقام: الفتوحات والجهاد

النص الثالث: خطبة أبي عبيدة في جنوده يوم اليرموك

(... ولما تراءى الجمعان وتبارز الفريقان وعظ أبو عبيدة المسلمين فقال: عباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، يا معشر المسلمين اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار، ولا تبرحوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدأوهم بالقتال وشرِّعوا الرماح واستتروا بالدرق والزموا الصمت إلا من ذكر الله في أنفسكم حتى آمركم إن شاء الله تعالى.)[٣].

وفي رواية أخرى: (... فلما ترتبت الصفوف سار أبو عبيدة بين الصفوف وجعل يحرض المؤمنين على القتال يقول: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾[محمد: ٧] والزموا الصبر فإن الصبر منجاة من الكرب

١) ديوان أبي العلاء (سقط الزند) – ط دار بيروت، دار صادر ١٩٥٧م – من قصيدة بعنوان (ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل) صـ١٩٤

٢) الأرصاد بمعنى: الرقباء (لسان العرب –رصد)

٣) البداية والنهاية – جـ١٢/٧ – يوم اليرموك.

ومرضاة للرب ومقمعة للعدو فلا تزايلوا صفوفكم ولا تنقضوا نيتكم ولا تخطوا خطوة إلا وأنتم تذكرون الله ولا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم وشرعوا الرماح واستتروا بالمرق والزموا الصمت إلا من ذكر الله ولا تحدثوا حدثًا حتى آمركم ثم رجع إلى مقامه من القلب فوقف فيه)[١].

- تأتي هذه الخطبة في سياق احتشاد الروم ومن شايعهم من نصارى العرب بقيادة جبلة بن الأيهم بغية استئصال الإسلام من جزيرة العرب (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم...)[٢] حتى قال كبيرهم يومها: (والله لنشغلن أبا بكر في نفسه عن توردّ بلادنا بخيوله) [٣].
- وجمع هرقل الروم لهذا الغرض من الجنود ما لم يجمعه الروم في يوم آخر، فقد كاتب كل من يحمل الصليب واستنفر نصارى العرب، حتى اجتمع له ما يزيد عن مائتي ألف مقاتل، أولهم في انطاكية وآخرهم في رومية الكبرى، فوصفهم واصف المسلمين بقوله: (فو الله ما شبهت عساكر اليرموك إلا كالجراد المنتشر إذا سدَّ بكثرته الوادي) [٤]، فأجمع المسلمون أمرهم وتنادوا في ألويتهم المنتشرة في ربوع الشام تحت رآيات متعددة، أن اجمعوا تحت رآية واحدة، ليقدروا على مواجهة هذا الزحف الصليبي المرعب، فانضووا جميعا تحت رآية واحدة عُقدت لسيف الله المسلول "خالد بن الوليد" رضي الله عنهم أجمعين.
- ولم يبق أحد منهم تلك الليلة إلا وقد أخذ عُدته (وبات الناس في ليلتهم يقرأون القرآن ويسألون المعونة والنصر) [٥].
- فلما أصبح الصبح وترتبت الصفوف، وقد أخذت الرهبة بقلوب أغلبهم ممن رأوا عدة الروم وعتادهم، الأمر الذي يصوره أحد نصارى العرب بقوله لخالد بن الوليد (ما أكثر الروم، وأقلّ المسلمين!! فقال خالد: ويلك، أتخوفني بالروم؟ إنما تكثر الجنود بالنصر وتقلّ بالخذلان لا بعدد الرجال، والله لوددت أنهم أضعفوا في العدد) [٦].
- في هذا السياق المشحون بالترقب والوجل وأهبة الاستعداد قام أبو عبيدة بين الصفوف خطيبا بهذه الخطبة التي نتعرض لنفحاتها ونفعها بيانًا وتحليلًا.

ويلاحظ قيام خطبته رضي الله عنه على عدة معان كلية:

- الدعوة إلى نصر الله وبيان جزائه.

---

١) فتوح الشام – صـ ٢٠٥

٢) الصف: ٨

٣ تاريخ الطبري ٣٤٢/٢

٤) فتوح الشام ١٩٨

٥) السابق ٢٤٨

٦) البداية والنهاية –جـ٧ /١٣–يوم اليرموك

- الحث على الصبر وذكر فضله وعاقبته، والتوجيه ببعض أمور القتال، والحض على لزوم ذكر الله في كل حال، والتأكيد على عدم إحداث أمر دون إذنه – رضي الله عنه –.

فيستهل رضي الله عنه خطبته بندائهم "عباد الله"، استجماعا لشتات نفوسهم، ولفتا لانتباههم إلى قيمة ما يأتي من أوامر ونواهي، وفي تخصيصهم بصفة العبودية هنا تشريف لهم ورفعة على حد قول القائل:

ومما زادني شرفًا وتيهًا وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك: يا عبادي وأن صيَّرت أحمد لي نبيا [١]

كما فيه تذكير لهم أن عبوديتهم لله تقتضي امتثالهم ما يأمرهم به من "نصرهم الله"، ففي البدء بصفة العبودية تحريض لهم وحث على النهوض بالمأمور به من نصر الله لكونه من مقتضيات عبوديتهم إياه جل جلاله.

- ويؤثر لفظ الجلالة "الله" بإضافة العبودية إليه، دون غيره من أسماء الله الحسنى –على كثرتها–فلم يضف العبودية إلى اسم الرحمن "عباد الرحمن" جريا على نسق القرآن مثلا [٢] وذلك لما في اسم الجلالة "الله" من تربية المهابة، واستحضار الجلال في النفوس، لا سيما في مثل هذا الموقف؛ فضلا عن أن غالب أهل العلم على أن لفظ الجلالة "الله" هو اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا استنصر به نصر؛ وإذا استغيث به أغاث، فكان المقام هنا أحق به وأولى.
- وبعد أن هيأهم أبو عبيدة وضمن انتباههم وعنايتهم دعاهم إلى المأمور به الأول في خطبته وهو "نصر الله" مبينا جزاءه وعاقبة أمره، وذلك قوله: "إن تنصروا الله ينصركم".
- ويأتي التعبير هنا بـ "إن الشرطية" ـ المفيدة ندرة الشرط وعدم الجزم بوقوعه –للدلالة على مشقة الشرط وشدته، حتى جعل المطلوب بهذا الشرط " نصرة الله " كالمشكوك في القيام به، لقلة الموفين به الناهضين بحقه.
- ولما كان نصر الله لمن ينصره قد يكون مع الوهن أو زلل الأقدام وما شابه، جاء قوله "ويثبت أقدامكم" دفعا لهذا التوهم، فالجملة بمثابة الاحتراس.
- وفي جملة "ويثبت أقدامكم" تمثيل رائق، حيث شبهت حال اليقين وعدم الزيغ أو الزلل بحال من ثبتت قدمه في الأرض فلم يزلّ أو يزغ.
- ولا يخفى ما في قوله رضي الله عنه "انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم" من تأثر بالنظم القرآني في قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ومما زاد التأثر هنا بهاء وعلوا كونه من

---

١) ينسب إلى القاضي عياض –غذاء الألباب للسفاريني (ت: ١١٨٨هـ) دار الكتب العلمية ـ لبنان – ط أولى ١٩٩٦م – ٤٧٥/٢ –تصحيح محمد الخالدي

٢) كما في قوله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا...) الفرقان ٦٣

حيث النظم ومن حيث استدعاء المقام فالآية الكريمة واردة في متنزل سورة الجهاد "محمد" وكذا قوله رضي الله عنه جار في سياق الجهاد، فهذا من تلك.

- ثم يكرر النداء عليهم "يا معشر المسلمين" ضمانا لانتباههم، وقبولهم نصيحته قبولا حسنا، ثم يأمرهم بقوله "اصبروا" على طريقة الإنشاء الطلبي والمراد به الأمر الحقيقي، والصبر هو حبس النفس عن الجزع مما ينالها أو ينزل بها.
- وفي ابتداء خطبته بأمرهم بالصبر ما يفصح عن الحالة النفسية لأغلب القوم، وما يحيط المقام من كرب وترقب ووجل يذهب بالنفس كل مذهب، والثابت من ثبته الله وربط على قلبه.

ثم يذكرهم بعاقبة الصبر –لا سيما في مثل ما هم فيه – بقوله "فإن الصبر منجاة من الكفر"، وفي رواية "من الكرب" [1] وأراها الأنسب والأقرب للمقام هنا، فقد نزل بالقوم من الكرب ما لا يخفى على أحد فضلا عن قائدهم أبي عبيدة"، والصبر حقيقة منجاة من الكرب، تصديقا بموعود الله جل جلاله لعباده في مثل هذا السياق ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [2] وعلق الله جل جلاله معونته عباده وإمدادهم على الصبر والتقوى بقوله ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [3] والصبر منجاة من الكرب كذلك لأن النصر صبر ساعة.

- والصبر منجاة من الكفر، لأن عدم الصبر " الجزع والسخط " مظهر من مظاهر عدم الإيمان بقضاء الله والتبرم بقدره، ثم إن عدم الصبر – خاصة عند لقاء العدو– هو صورة من صور إعطاء المسلم الدنية من دينه وتمكين عدو الله من نفسه، ولعل هذا يفسر كثرة الأمر القرآني بالصبر عند لقاء العدوّ [4].
- ومن عواقب الصبر – كذلك – أنه "مرضاة للرب" لكونه الآمر به، ولاريب أن أفضل ما يتوسل به العبد ويتقرب إلى ربه هو امتثال المأمور به "كالصبر هنا" في عموم الأوقات، فم بالك بمواقف المحن ووقت النوازل!!
- ومن ثمرات الصبر – كذلك – كما بين أبو عبيدة رضي الله عنه "ومدحضة للعار" وفي رواية "ومقمعة للعدو" وكلاهما مناسب للمقام، وهذا سمت الكلام العالي، أعني: اكتنازه بالمعاني الثرة؛ والصبر حقيقة مدحضة للعار الدنيوي والأخروي.

---

١) فتوح الشام – الواقدي ٢٠٥

٢) آل عمران ١٢٠

٣) السابق ١٢٥

٤) منه على سبيل الاستشهاد (يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) آل عمران ٢٠٠، (يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا...) الأنفال ٤٥.

- مدحضة للعار الدنيوي لأن غير الصابر يلاحقه شنار الفرار من المعركة وخزي عدم الثبات في وجه العدو، لا سيما العدو العازم على اقتلاع شجرة التوحيد، ولا يفوتنا أن المخاطبين بهذه الموعظة عرب ومسلمون، تغلي منهم الدماء، وتذهب نفوسهم سخية فداء لدينهم وذبا عن أعراضهم وأوطانهم، لذا فهم يعدون مجرد تولية أدبارهم وظهورهم عدوهم لهو الصغار والهوان الذي يلاحقهم وذرياتهم إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين.
- لذا كان مما يمتدحون به ويفتخرون ما عناه كعب بن زهير:

لا يقع الطعن إلا في نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل [١]

أو قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حياض الموت قد صَلِيْتِ
إن تسلمي اليوم فلن تفوتي أو تبتلي فطالما عُوفيتِ
وما تمنيتِ فقد أُعطيتِ إن تفعلي فعلهما هُديتِ
وإن تأخرتِ فقد شقيت [٢]

ومن أقوالهم المنثورة التي سارت بها الركبان "استقبال الموت خير من استدباره"، "احرص على الموت توهب لك الحياة"، وسرد أقوالهم في هذا الشأن مما يضيق به مقامنا.

ويواصل أبو عبيدة – رضي الله عنه –بيان ثمرة الصبر بقوله "ومدحضة للعار" الذي لا شك ملاحق عدم الصابر في الدارين، وهو مما تنفر منه النفوس العزيزة وتفرّ منه فرارها من الأسد، وفي رواية الواقدي "ومقمعة للعدو" وهي أقرب رحما بمقامنا هنا، فإن الصبر في مواجهة العدو، والتجلد والثبات يفتّ في عضد العدو وينال من معنوياته كثيرا، ويرده على عقبه خاسرا، وهو عين قوله تعالى (وصابروا) بعد (اصبروا) في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[٣].

- والمصابرة مفاعلة من الصبر، وتعني تذرع الطرفين بالصبر، غير أن العاقبة للأصبر، والمصابرة (أشد الصبر ثباتا في النفس وأقربه إلى التزلزل، ذلك أن الصبر في وجه صابر آخر شديد على نفس الصابر لما يلاقيه من

١) من قصيدته (بانت سعاد) في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم –انظر شرح الخطيب التبريزي على قصيدة (بانت سعاد) – تحقيق: عبد الرحيم الجمل. مكتبة الآداب. سنة ٢٠٠٣م – صـ ٦.

٢) ديوان عبد الله بن رواحة. ت: د وليد قصاب – دار العلوم للطباعة –١٩٨٢م –صـ ٩٩.

٣) آل عمران ٢٠٠

مقاومة قِرن له في الصبر قد يساويه أو يفوقه، ثم إن هذا المصابر إن لم يثبت على صبره حتى يملَّ قرنه فإنه لا يجتني من صبره شيئا، لأن نتيجة الصبر تكون لأطول الصابرين صبرا) [١].

- ويلاحظ هنا بناء العبارات الثلاث على المصدر الميمي المقترن بالتاء "منجاة. مرضاة.. مدحضة" والمصدر الميمي يدل غالبا على (نهاية الأمر أو منتهاه) [٢] فالنجاة تعني: السلامة، والمنجاة تعني غاية السلامة ونهايتها إلى ما لا شيء بعدها، ففي التعبير بالمصدر الميمي مبالغة في التأكيد على المراد لما ذكر من جهة.
- ومن جهة أخرى: لأن المصدر الميمي يدل على الحدث وزيادة، ويعني بالزيادة هنا دلالته على الحدث والذات [٣] أو الحدث والمكان [٤].
- ثم إن سبك الجمل على هذا النمط أخرجها مخرج الحِكَم، فتصلح كل جملة للاستقلال بمعناها.
- ويحسن التنبيه في قوله رضي الله عنه (الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار) على أمرين:

الأول: المجاز العقلي الذي بُني عليه الكلام، لأن الصبر سبب في ذلك كله، وليس الفاعل الحقيقي له ووراء هذا تنبيه على فاعلية الصبر وقوة أثره.

الثاني: أن الظاهر تقديم (مرضاة للرب) لأن رضا الله هو أعلى الثلاثة فلم قدم عليه النجاة من الكرب؟ أرى – والله أعلم –أن ذلك للاهتمام ومراعاة حالهم النفسية في هذا المقام الذي زلزلوا فيه زلزالا شديدا.

- ثم ينتقل النظم إلى المعنى الثالث من المعاني التي تضمنتها الموعظة "التوجيه ببعض الأمور الحربية" وأولها: "عدم مبارحتهم صفوفهم" وذلك قوله رضي الله عنه "لا تبرحوا مصافكم" وفي رواية "فلا تزايلوا صفوفكم"[٥] مبالغة في الالتزام التام بأوامر قيادة الميدان والسمع والطاعة الكامل لتوجيهات الأمير
- ثم يأتي الأمر الثاني "ولا تخطو إليهم خطوة" وكان يمكن الاستغناء عنها بالجملة السابقة عليها، غير أن المجئ بها هنا فيه مبالغة على المعنى الرئيس، الذي جرت على لاحبه الأوامر الأربعة:

(لا تبرحوا مصافكم – لا تخطوا إليهم خطوة – لا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم – لا تحدثوا حدثا حتى آمركم)[٦] وأعني به كمال الامتثال وتمام الطاعة لأوامر القيادة، وذلك معنى وواجب فرضته طبيعة المقام وخصوصية هذه المعركة التي لها ما بعدها، والتي تكبد الاجتهادات الشخصية فيها جيش المسلمين من الخسائر وتنزل به من الفداحة ما لا يعلم مداها إلا الله جل جلاله.

---

١) التحرير والتنوير ٤/٢٠٧–تفسير الآية الأخيرة من آل عمران

٢) البلاغة القرآنية في نكت الرماني – عبد القاهر الحمراني – مكتبة عيداء . ط أولى . ص –٢١٦

٣) مثل قوله تعالى (من بعثنا من مرقدنا) سورة يس ٥٢، ففيه دلالة على بعثهم بذواتهم

٤) مثل قوله تعالى (والله يعلم متقلبكم ومثواكم) سورة محمد ١٩، ففيه إلى جانب الدلالة على الحدث

٥) فتوح الشام.٢٠٥

٦) السابق.

وفي قوله لهم (وشرعوا الرماح واستتروا بالدرق) [١] ما يدل على خبرة أبي عبيدة وكفاءته العسكرية، وهو لون من ألوان بذل الوسع في الأخذ بالأسباب المادية البشرية.

ولا ينس أبو عبيدة نصيبهم من زاد الروح وغذاء القلوب "والزموا الصمت إلا من ذكر الله" فهو يوجههم أن يشتغلوا إزاء عدوهم بذكر الله كثيرا إلى جانب أخذ الأهبة واستنفاد الجهد البشرى، وهذا تأكيد للأمر القرآني في هذا المقام في غير موضع منه﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [٢]، وقوله ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[٣].

فإذا كان ذكر الله مأمورا به في الأحوال العادية فالأمر به عناء لقاء العدو آكد، ذلك لأن النصر من عند الله العزيز الحكيم لذا فقد أمر عباده أن تلهج ألسنتهم استغاثة به تعالى وإلحاحا في سؤاله جل جلاله النصر على عدوه وعدوهم، وهذا ما يرجح أن الذكر هنا خاص ويراد به: أن يفرغ عليهم الصبر في مواجهة عدوهم والنصر عليهم والظفر بهم، بدليل ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [٤] وقوله ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة ٢٨٦، وشواهد ذلك من السنة النبوية مما لا تخطئه عين.

- ومما يلفت الانتباه في رواية الواقدي تكرار الأمر بذكر الله، مرة في خاصة أنفسهم، وذلك قوله: (والزموا الصمت إلا من ذكر الله ولا تحدثوا حدثا حتى آمركم) [٥]

ومرة ثانية عند بذل المجهود الحربي والصولان والجولان، وذلك قوله (ولا تخطوا خطوة إلا وأنتم تذكرون الله)[٦] وفيه التأكيد على أهمية الذكر خاصة في هذا المقام، وذلك عن طريق الكناية بالتعبير عن الشيء بطرفيه، دلالة على الاستغراق، نحو قوله تعالى ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [٧] أي أول النهار وآخره كناية عن الاشتغال بذكره تعالى على كل حال وفي كل وقت.

---

١) الدرق: ترس من جلود ليس فيه خشب ولا عقب –لسان العرب.

٢) الأنفال ٤٥.

٣) آل عمران١٤٦-١٤٧.

٤) البقرة ٢٥٠.

٥) فتوح الشام ٢٠٥.

٦) السابق.

٧) الإنسان ٢٥؟

المبحث الخامس: مقام طاعون عمواس

النصّ الأول:

ما اشتعل الوجع قام أبو عبيدة بن الجراح في الناس خطيبا، فقال: ﴿إن هذا الوجع رحمة ربكم، ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم لهُ منه حظه﴾[1].

المعاني المهمة في حاجة إلى تهيئة النفس لها تهيئة خاصة حتى تتقبلها قبولاً حسناً وتقع المعاني من النفس الموقع الأليقُ بها.

وسيدنا أبوعبيدة–رضي اللهُ عنهُ –قام بتهيئة نفوس المخَاطبين على أكمل ما يقتضيه حالهم، هيأهُم فعلياً حين قامَ فيهم خطيباً.

وهيأهُم قولاً بالنِداء «أيُها الناس» حِرصاً منهُ على جمع قلوبِهم عليهِ، وجذب انتباههم إليه، فيُلقون أسماعهم إليه، وشتانٌ بينَ أن يحشد المتكلم لمعناهُ كل ما يستطيع من وسائل التنبيه عليه والإشارة إليه، وبينَ أن يُلقيهِ هكذا ساذجاً غفلاً

ثم يأتي التوكيد بـ"إن واسمية الجُملة"، لِقْطع كل وهمٍ، ونفيّ كل شكٍ أو لبس، لاسيما وقد وقع البعض في شيءٍ من ذلك [2] وتعددت فهوم الناس حول هذا الوجع.

ويأتي التعبير بالإشارة في قولهِ –رضي الله عنهُ –«إن هذا الوجع» لإحضار المراد في الذهن وتمييزه أكملَ التمييز.

ثم يؤثر التعبير عن "الطاعون" بالوجع" دون غيرهِ كالألم مثلاً. لكون الوجع أعمّ من الألم، ثم إن التعبير بالوجع فيه مزيد تلطُف وتأدب مع قضاء الله وقدره، وفيه طرف من معنى قوله تعالى ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [3] وقوله ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [4] بخلافِ التعبير عن الألم، ففيهِ إيحاء بالتسخط والاعتراض، وقد يُشتم منهُ رائحة تزكية النفس من حيث كونها لا دخل لها بما نزل بها من قريبٍ أو من بعيد[5] –ولعل قوله – رضي الله عنه – "إن هذا الوجع رحمة ربكم" يُشير إلى ما ورد في الحديثِ

---

١) أُسد الغابة ٣٩١/٣ ابن الأثير . نشر: دار الفكر –بيروت . نشر: ١٤٠٩هـ –١٩٨٩م، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك –أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي –تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا –دار الكتب العلمية، بيروت – ط: الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م – ٢٤٧/٤ –أحداث سنة ثمان عشرة.

٢) عن عبد الله بن حيان أنه سمع سليمان بن موسى يذكر أن الطاعون وقع بالناس يوم جسر عموسة فقام عمرو بن العاص فقال: يأيها الناس إنما هذا الوجعُ رجس فتنحوا عنهُ، فقام شرحبيل بن حسنه فقال: يأيُها الناس: إني قد سمعتُ قولُ صاحِبكم، وإني والله لقد أسلمتُ وصليتُ وإن عمراً لأضل من بعير أهله؛ وإنما هو بلاءٌ أنزله الله عز وجل فاصبروا) البداية والنهاية جـ /٦، ودلائل النبوة للبيهقي –باب: إخباره صلى الله عليه وسلم عن الغيوبِ المستقبلية.

٣) الشورى ٣٠

٤) آل عمران ١٦٥

٥) الألم هو: ما يلحقه به غيرك؛ والوجع: ما يلحقكَ مِن قبلِ نفسكَ ومن قِبل غيرك» معجم الفروق العسكري ٥٦٩/١ط أولى ١٤١٢هـ مؤسسة النشر الإسلامي.

النبوي: (أنه كان عذاباً يبعثه الله على من يشاء فجعله الله رحمةً للمؤمنين، فليس من عبد يقع الطاعون في بلده فيمكث صابراً محتسباً، يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد)[١].

وقوله- رضي الله عنه -"ودعوة نبيكم" يُشير إلى حديث أبي بكر الصديق قال: (كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار، فقال:" اللهم طعناً وطاعوناً"، قلتُ يا رسول الله إني أعلم أنك قد سألت منايا أمتك، فهذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: ذَرَبٌ كالدَّمَّل، إن طالت بكَ حياةٌ ستراه)[٢].وفي رواية أخرى:(اللهم اجعل فناء أمَتي قتلاً في سبيلك بالطعنِ والطاعون)[٣].

ودعاؤهُ صلى الله عليه وسلم بهذا يبين عن طلبهِ الدرجات العُلى من الجنة لأمته لقاء صبرها، واحتسابها على ما ينزل بها من الطاعون، وما تُلاقيه في ساحات الوعي والشرف من الطعن والنزال مقبلين غير مُدبرين دفاعاً عن بيضةِ الإسلام.

ومن أبرز ما يُلفت الانتباه في كلام أبي عبيدة السابق "حُسن الترتيب" حينَ بدأَ بِـ "الله" جل جلالهُ، وثنَّى بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ختم بالصالحين من عبادِه، وهو ترتيب غاية في التوفيق.

-وهكذا يستوقفنا السجع الذي زادَ الكلام انسجاما، بجريانِ الكلام على طريقةٍ واحِدة مما يسّره للحِفظ.

مقام طاعون عمواس

النصّ الثاني:

عَنِ الأَسْوَدِ، عَنْ عُرْوَةَ: أَنَّ وَجَعَ عَمَوَاسَ كَانَ مُعَافًى مِنْهُ أَبُو عُبَيْدَةَ وَأَهْلُهُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ نَصِيْبَكَ فِي آلِ أَبِي عُبَيْدَةَ!

قَالَ: فَخَرَجْتُ بِأَبِي عُبَيْدَةَ، فِي خَنْصَرِهِ بَثْرَةٌ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، فَقِيْلَ لَهُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ بِشَيْءٍ. فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ يُبَارِكَ اللهُ فِيْهَا، فَإِنَّهُ إِذَا بَارَكَ فِي القَلِيْلِ، كَانَ كَثِيْراً.[٤]

في هذا النموذج من البيان العالي لسيدنا أبي عبيدة – رضي الله عنه وأرضاه – نلحظ:

افتتاحه الدعاء باسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب جل جلاله، وإذا سئل به أعطى أكرم الأكرمين، وفي ذلك دلالة على صدق رغبته-رضي الله عنه – فيما يسأله الله.

وأوثر اسم الجلالة "الله" بالنداء لكونه الأكثر فى مقامات الدعاء، ثم إنه الجامع لكمالات الأسماء الحسنى، ولأن الألوهية أعم من الربوبية، فتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية وليس العكس

---

١) البُخاري الطب باب أجر الصابر في الطاعون ٢١٦٥/٥ حديث ٥٤٠٢، مسند أحمد: مسند العشرة المبشرين بالجنة ٦٤/٦ حديث ٢٤٤٠٣

٢) مُسند ابي يعلي الموصلي -تحقيق: حسين سليم أسد – دار المأمون للتراث- دمشق -ط أولى -١٤٠٤هـ-مُسند ابي بكر الصديق حديث ٥٥، مُسند ابي بكر – للمروزي-صـ١٢٥ حديث ٨٢

٣) المستدرك على الصحيحين – النيسابوري – ٩٣/٢ حديث ٢٣٩٤

٤) سير أعلام النبلاء ٢٨٣/٢ . عصر الخلفاء الراشدين – ذكر من ماتوا في طاعون عمواس، أسد الغابة ٢٦/٣

ولا يخفى ما يورثه اسم الجلالة من المهابة والجلال والتقديس والروعة في النفس، وأن سؤال الله به مشعر أن معاني الدعاء وزيادة قد ملكت على الداعي جنبات نفسه، وعظم تعلق الداعي بها.

*-كما كشف إيثار اسم الجلالة هنا عن التأدب العالي في سؤال الله جل جلاله، لكون الدعاء به متضمنا الثناء والتعظيم والتمجيد لله تعالى... قبل أن يسأل المرء طلبته وحاجته. (١)

*- ثم يأتي حذف الفعل، والتقدير: أسأل نصيبك – أي من الطاعون – مسارعة إلى ما تصبو عليه نفسه من طلب الشهادة؟ بدليل قوله في الخبر الآخر (وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم له حظه منه)(٢) فكلامه رضي الله عنه يفسر كلامه.

*- ويلاحظ في الخبر الآخر (وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم له حظه منه) تعبيره بلفظة " الحظ" – والمختصُّ استعماله بالفضل والخير– (٣) وفي ذلك بيان لسمو نفس أبي عبيدة، وعلوّ تربيته، حيث يرى فيما يدعو الله به عينَ الخير وتمامَ الفضل وكمالَ العطاء، بخلاف ما يراه غيره في مثل هذا.

ثم تأتي إضافة نصيب إلى كاف المخاطب جل جلاله "نصيبك" وكان يمكن أن يقول نصيبي من الطاعون مثلا وتقع هذه الإضافة في قوله "نصيبك" – بعد التعبير باسم الله الأعظم، والذي هو مناط التنزيه والتسبيح والتعظيم والتمجيد –طمعا ورغبة في وفرة هذا النصيب، فكيف بنصيب مسديه أكرم الأكرمين جل جلاله!

يعضد هذا التعبيرُ بحرف الجر "في" – المفيد للظرفية – (اللهم نصيبك في آل أبي عبيدة) وفيه دلالة أن أبا عبيدة يرجو أن يكون أهله وعاء لقدر الله ونصيبه، وكان يمكنه أن يقول " اللهم نصيب آل أبي عبيدة " مثلا. وإذا لفاتت معه هذه اللطائف التي اكتنفها التعبير بحرف الجر.

ـ ويُقدّم أبو عبيدة آله في الدعاء هنا (اللهم نصيبك في آل أبي عبيدة) مبالغة منه في صدق دعائه وحرارة رجائه، إذ جرت العادة أن الإنسان يفتدي آله بنفسه وبما يملك مما فيه شائبة مكروه، لا أن يصدرهم في الدعاء بمثل هذا، وهو قريب من دعاء المباهلة في آل عمران ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (٤).

---

١) أفاض ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) في بيان ذلك في بدائع الفوائد –نشر: دار الكتاب العربي،٢/ ٦٩٢.

٢) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك) – أبو الفرج الجوزي – تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية، بيروت –ط: الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م –٢٤٧/٤ – أحداث سنة ثمان عشرة.

٣) انظر: لسان العرب، مقاييس اللغة، تهذيب اللغة، مادة (ن – ص – ب) والكشاف عند تفسير قوله تعالى (وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) آل عمران/١٧٦. بقوله (المراد بالحظ: النصيب من الثواب) الكشاف ٤٨٢/١، وقول الطاهر بن عاشور (الحظ: النصيب من شيء نافع) عند تفسيره الآية نفسها –التحرير والتنوير١٧٣/٤

٤) آل عمران ٦١ وفيها يقول الزمخشري (... ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه، حيث استجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه لذلك) الكشاف ٣٦٩/١

ـ ونلحظ في قول سيدنا أبي عبيدة – رضي الله عنه – "إني أرجو أن يبارك الله فيها" تأكيدَ الجملة بـ"إنَّ" وفي الرواية الأخرى باللام في قوله "إني لأرجو" وقد دعى إلى هذا التأكيد قولُ الصحابي لأبي عبيدة في شأن البثرة "إنها ليست بشيء" هكذا بالتأكيد بإن، ثم تأكيد النفي بالباء الزائدة في خبر ليس "بشيء".

فجاء تأكيد أبي عبيدة في مواجهة التأكيد في كلام صاحبه، فالرجل يهون من شأن البثرة، وأبو عبيدة يُلح على الله أن يبارك فيها.

ويسترعي الانتباه هنا الدعاء بالبركة في المرض وذاك شأن غريب غير مألوف، إذ المتوقع الدعاء بالبرء من المرض لا البركة فيه، لكنه أبان هنا عن مدى شوق أبي عبيدة إلى تحقيق مناه من الفوز بالشهادة.

ثم يأتي قول أبي عبيدة رضي الله عنه:(فإن الله إذا بارك في القليل كان كثيرا) متناسلا من الدعاء بالبركة في البثرة في الجملة الأولى، فالجملة هنا مسوقة لتعليل ما سبق والطمع في تحقيقه.

٤–وتأتي إذا الشرطية في قوله:(إذا بارك) لتفيد التحقيق والقطع بحصول البركة، وهذا يمضي على طريقة سبك الجملة الأولى: المؤكدة بإن، وباللام في "لأرجو" –كما في رواية أسد الغابة – ثم بالتعبير بـ (أرجو) مما يدل على شدة الرغبة والشوق إلى الشهادة.

–ثم يأتي الطباق الظاهر بين "القليل والكثير"، ليخلع على المعنى جلالا وفخامة ما كانت لتكون بغير الطباق، وكان ممكنا قوله (إني أرجو أن يبارك الله فيها) ويسكت ويقطع الكلام.

كأني بتعبير أبي عبيدة – رضي الله عنه – "فإن الله إذا بارك في القليل كان كثيرا"، ينظر إلى مشكاة النبوة في قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله إذا أراد أن يعظم صغيرا عظمه) [١].

ثم يختم سيدنا أبو عبيدة –رضي الله عنه – بحشد المؤكدات من: القسم، والتعبير بـ "إن" (فَأَقْسَمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِاللهِ: إني ما أحب أن لي بها حمر النعم) [٢]، مبالغة في الدلالة على فرحه بهذه البثرة ورجاء بركتها، وأن تكون أول الغيث في نصيبه الإلهي الوافر من هذا الطاعون.

مقام طاعون عمواس

النصّ الثالث: رضا أبي عبيدة بقدر الله تعالى وعدم إيثاره نفسه على رعيته

عن قيس بن مسلم عن طارق: أن عمر كتب إلى أبي عبيدة في الطاعون: أنه قد عرضت لي حاجة ولا غنى بي عنك فيها، فعجل إليَّ، فلما قرأ الكتاب قال: عرفت حاجة أمير المؤمنين، إنه يريد أن يستبقي مَنْ ليس بباق، فكتب: إني قد عرفت حاجتك، فحللني من عزيمتك، فإني في جند من أجناد المسلمين، لا أرغب بنفسي

---

١) روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقلق القلق الشديد لما يظهر في جسمه من الداء اليسير، فقيل له: في ذلك، فقال (إن الله إذا أراد أن يعظم صغيرا عظمه) المجازات النبوية– الشريف الرضي – صـ٤٥٤ – حديث ٣٥٣ /نشر مكتبة بصيرتي . تحقيق د طه الزيتي – بدون تاريخ.

٢) كما عند ابن المبارك في الزهد، والذهبي في سير أعلام النبلاء.

عنهم. فلما قرأ عمر الكتاب بكى، فقيل له: مات أبو عبيدة؟ قال: لا، وكأن قد. قال: فتوفي أبو عبيدة، وانكشف الطاعون) [١].

يكشف هذا النصّ عن مدى فقه الفاروق ـ عمر بن الخطاب رضي الله عنه –حين أراد إنقاذ أخيه ـ أمين الأمة – من بلاء الطاعون النازل بالشام، فأرسل إليه يطلبه لحاجة عرضت، ولا غنى له فيها عن أبي عبيدة.

وربما اتكأ عمر –رضي الله عنه –في فقهه هنا على مقولته الذائعة (نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله) [٢] ولِعُمَر في القضاء والقدر فقهُ عال يضيق عنه مقامنا.

فيبادله أمين الأمة ـ أبو عبيدة ـ فقها بفقه، مع كمال الحرص على وشائج المودة وأواصر التوقير، فيعتذر له عن أن يبرح مكانه – ولو للخروج إلى أمير المؤمنين–وربما اعتمد أبو عبيدة في فقهه هذا على قول النبي صلى الله عليه وسلم في الطاعون (إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه)[٣].

وأول ما يطالعنا في النص هنا يطالعنا قول أبي عبيدة: "عرفت حاجة أمير المؤمنين"، فيؤثر رضي الله عنه التعبير بالمعرفة "عرفت" دون "علمت"... مثلا، لأن المعرفة تعني ـ من جملة ما تعني – إدراك الشيء إدراكا يميزه عن غيره تمييزا بيّنا، كما أن معرفة الشيء تعتمد في الأغلب على مجموعة الخبرات والاستنتاجات للشخص في موقف أو رأي بعينه.

فالمعرفة تركن إلى الفهم الشخصي للأمر، وهو لا ريب فهم عرضة للصواب والخطأ، لقيامه على الاجتهاد الشخصي والفهم الخاص.

بينما يعني العلم: إدراك الشيء علما قائما على إدراك خصائصه ودقائقه اعتمادا على الدليل.

وعليه: فقوله رضي الله عنه "عرفت حاجة أمير المؤمنين" يشير إلى أنه اجتهاد شخصي قائم على رصيد خبرته بالمواقف والأحوال والأشخاص، مع احتمال صوابه وخطأه، بخلاف ما لو قال: "علمت حاجة أمير المؤمنين" فإن ذلك يعني اليقين وتأكد الصواب، لإحاطته بتفاصيل الشيء، وقيام كلامه على الدليل الدامغ.

وهذا ما لا يدعيه أبو عبيدة – رضي الله عنه – فاحتاط لنفسه بإيثاره التعبير بالمعرفة دون العلم.

كما أن المعرفة يغلب استعمالها في جانب الخلق، بينما يشيع استعمال العلم في جانب الخالق جل جلاله.[٤]

---

١) سير أعلام النبلاء ١/٥.

٢) البخاري ـ كتاب الطب –باب ما يذكر في الطاعون ـ حديث ٥٣٩٧.

٣) البخاري ـ كتاب الطب –باب ما يذكر في الطاعون ـ حديث ٥٣٩٧، مسلم: كتاب السلام – باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها – حديث ٤١١٤.

٤) أطالت المعاجم والفلاسفة النَفَس في التفريق بين العلم والمعرفة، وكان من خلاصة ما انتهوا إليه: أن العلم يكون من الله جل جلاله، وأن المعرفة هي الأنسب استعمالا في جانب الخلق، لأنها مهما بلغت في قاصرة ولا تبلغ خبايا الشئ ودواخله، فيقول الواحد منا: عرفت كذا لدفع توهم أنه قد أحاط بالمعرف علما، إنما يحترز بقوله عرفت وليؤكد على أن معرفته ربما يكون فاتها أشياء، أو أن تصوره للشيء ناقص. ومن أمثلة التعبير بالعلم في جانب الله – جل وعز – قوله تعالى ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا

ثم يضيف أبو عبيدة "الحاجة" إلى "أمير المؤمنين" لتعريفه أكمل تعريف وإحضاره في ذهن السامع، فوق ما في ذلك من تمام التوقير وكمال التقدير في نفس أبي عبيدة لشخص أمير المؤمنين، وهذا سمت كبار النفوس، عالي التربية رضي الله عنهم أجمعين، وألحقنا بهم على خير قرة عين.

ثم يميط أبو عبيدة اللثام عن الغموض والتشوق الذي أثارته جملته "عرفت حاجة أمير المؤمنين" بقوله رضي الله عنه: "إنه يريد أن يستبقي من ليس بباق"، ففيه طباق سلب أعلاها وحلاها بين (تستبقي وليس بباق)، فكأن أمير المؤمنين يريد ما هو ضد حقيقة الوجود وهو عدم الفناء الذي كتبه الله على كل من عليها، وهي صورة بديعية رائقة.

مع ملاحظة زيادة الباء في خبر ليس "بباق" وما أفاده من مزيد التوكيد لتلك الحقيقة.

ثم يكتب إلى أمير المؤمنين – رضي الله عنهما – "إني قد عرفت حاجتك".

ويلاحظ أن جملته هذه إلى أمير المؤمنين قد جاءت محتشدة بالتوكيد (إن، اسمية الجملة، قد) بخلاف جملته الأولى هناك "عرفت حاجة أمير المؤمنين" فقد خلت من التوكيد لكونها ـ هناك ـ موجهة لمخاطب خالي الذهن.

بينما جملته – هنا – إلى أمير المؤمنين قد استدعت هذا الحشد من التوكيد لإزالة الاستغراب المتوقع إذ كيف أبو عبيدة حاجة أمير المؤمنين التي لم يُفصح عنها!

وللمبالغة في التأكيد على معرفة أبي عبيدة حاجة أمير المؤمنين ومراده معرفة تامة، تميزها عن أي مقصود ومراد آخر، وفي هذا التأكيد ما فيه من دفع التوهم والتخمين والشك.

ثم تتوالى الجمل بعد هذه الجملة تفسيرا وجوابا عن الشرط المحذوف المفهوم من سياق الكلام وأبانت عنه " فاء الفصيحة، والتقدير فإذا كانت حاجتك ما عرفت فحللني.

ثم تأتي الجملة الأخيرة جوابا شافيا: "فإني في جند من أجناد المسلمين، لا أرغب بنفسي عنهم" فتفصح الفاء ثانية عن شرط آخر محذوف لعلمه من السياق.

وهكذا نرى كيف تنسل الجمل من رحم بعضها، وكيف تسبكا سبكا واحدا، فإن جملة "إني قد عرفت حاجتك" وإنْ كانت هي التي تولدت منها الجمل بعدها، فإني أرى جملة "فإني في جند من أجناد المسلمين، لا أرغب بنفسي عنهم" هي بيت القصيد وعامود التركيب.

تَعۡلَمُونَ﴿٣٠﴾ البقرة٣٠، وقوله ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ ﴾ البقرة٢٥٥، وقوله ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾(طه٩٨)،﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمَۢا ﴾ طه١١٠، ومن أمثلة التعبير بالمعرفة في جانب الخلق – غالبا .﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ **المائدة (٨٣)** ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ الحج:٧٢ ،﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ محمد: ٣٠.

ويظهر في الجملة الأخيرة "لا أرغب بنفسي عنهم" صريح التأثر بالبيان القرآني في قوله تعالى (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) [1].

ويلاحظ أن التأثر بالآية القرآنية هنا قد جاء نظما ومقاما، فالاثنان واردان في سياق الرباط والحراسة والقيام على الثغور دفاعا عن بيضة الإسلام.

وباب دراسة مظاهر التأثر بالبيان القرآني والبيان النبوي ومقاماته، أراه بابا يحتاج مزيدا من الجهد البلاغي، لعل الله يوفق إليه من شاء من طلاب هذا العلم الشريف.

وأرى أن قول الفاروق –لأبي عبيدة –فيه كناية عن رغبته في استبقاء أبي عبيدة من الطاعون، ذلك أنه لم يصرح بذلك، ولكنه كني عنه، ففهم أبو عبيدة مراده كما لو صرح به.

وشبيه ذلك في التنزيل العزيز سورةُ النصر، فقد فهم منها سيدنا أبو بكر– رضي الله عنه –أنها كناية عن قرب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان أبو بكر أعلم الصحابة بذلك كما قال الفاروق رضي الله عنه.

المبحث السادس: مقام وصية أبي عبيدة – رضي الله عنه – عند وفاته

عن سعيد بن أبي سعيد المقبري قال: لما طُعن أبو عبيدة بن الجراح بالأردن –وبها قبره –دعا من حضره من المسلمين فقال: إني موصيكم بوصية إن قبلتموها لن تزالوا بخير! أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا شهر رمضان وتصدقوا وحجوا واعتمروا وتواصوا، وانصحوا لأمرائكم ولا تغشوهم، ولا تلهكم الدنيا فإن امرءا لو عمر ألف حول ما كان له بد من أن يصير إلى مصرعي هذا الذي ترون، إن الله كتب الموت على بني آدم فهم ميتون، وأكيسهم أطوعهم لربه، وأعملهم ليوم معاده. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ يا معاذ بن جبل صلِّ بالناس. ومات. [2]

نقف في هذا النص الأغر مع وصية مودع ناصح أمين لقومه، حضرت الوفاة أبا عبيدة فرغب في وصية قومه بما يكفل لهم سعادة الدارين وعزهما.

ومما يدل على السرعة والعجلة قول أبي سعيد "دعا من حضره من المسلمين"، أي: أنه لم يدع أحدا ممن غاب عن مجلس احتضاره؛ لأن الوقت قصير، والكلمة الأخيرة له في الدنيا توشك على النفاد، والأنفاس معدودة، وهذا درس جليل ينبغي أن تتعلمه الأمة في هذا الموقف الصعب الذي نسأل الله –جل وعلا –الثبات والسداد فيه.

---

١) التوبة ١٢٠

٢) كنز العمال – المتقي الهندي (ت: ٩٧٥هـ) نشر: مؤسسة الرسالة – ط: الخامسة، ت: بكري حياني –صفوة السقا ٢١٩/١٣ ـ رقم ٣٦٦٦٦، تاريخ مدينة دمشق ٤٨٦/٢٥، جمع الجوامع للسيوطي – جـ٥٠٤/١٣ ـ مسند أبي عبيدة – فقرة٨٥٨٥ –تعليق خالد شبل – دار الكتب العلمية ـ بيروت.

والفاء في "فقال" حسنة جدا لما فيها من معنى السرعة فبل أن يبادر الأجل، كأنه يسابق الزمن ويصارع الموت ليقول وصيته قبل أن يطويه الثرى، وهذا يدل على شدة حرصه على أن يوصي بما فيه مصلحة المسلمين بعد موته، ليُكتب له أجر عنايته بالأمة بعد مماته كما كُتب له ذلك حال حياته، وهذا سر العناية بأمر الوصية قبل الموت، ولو جُمعتْ هذه الوصايا ودرست معانيها ومبانيها وما فيها من إصلاح للأمة ‘على ألسنة من يفارقون الحياة، ويلتقطون آخر أنفاسهم فيها لكان في ذلك خير كثير للأمة ونفع للبلاغة العربية، وهذا موضوع للبحث البلاغي ماتع جدا، نبّه عليه شيخنا الدكتور/محمد أبو موسى في كتابه (شرح أحاديث من صحيح مسلم) [1].

وقد دارت هذه الوصية على جملة من المعاني الشريفة:

١. التنبيه على أهمية الوصية وجذب الانتباه للعناية بها، وهذا في قوله "إني موصيكم بوصية إن قبلتموها لن تزالوا بخير"
٢. التذكير بإقامة بعض فرائض الإسلام وشعائره.
٣. النصح للأمراء والنهي عن غشهم.
٤. التحذير من إلهاء الحياة الدنيا.
٥. أحقية الموت على كل مخلوق، وبيان أكيس الناس وأطوعهم.
٦. "استخلاف معاذ بن جبل على الصلاة بالناس".

وتستهل الوصية بالتأكيد (إني) تنبيها على أهمية ما سيرد فيها من معان، تحتاج نفوسا يقظة وقلوبا حية وعقولا حاضرة.

والتعبير بـ "الوصية دون غيرها مثل: "الأمر، النصيحة" مثلا فيه دلالات جمة منها:

أن الوصية من معانيها "الوصل والاتصال"، أعني الاستمرار وعدم الانقطاع، فهو رضي الله عنه يريد لهم الاستمرار على ما يوصيهم به وعدم الارتداد عنه، وهو ناظر إلى معنى"خير العمل إلى الله أدومه" وكذلك إلى "اللهم إنا نعوذ بك من الحور بعد الكور" أي من الخذلان بعد التوفيق، ومن الانقطاع بعد الدوام.

ثم هو – رضي الله عنه –يريد لوصيته الاستمرار بتوريثها لمن بعدهم وعدم انقطاعها بحبسها على حضور وصية أبي عبيدة، وهذا معنى من معاني الخيرية في أمة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، وهو لب التواصي بالحق والخير– الذي ذكَّرهم به بعد قليل في وصيته "وتواصوا"

ثم إن الوصية يحركها دافع النصح ويدفعها هاجس الشفقة والمحبة للموصى له، لاسيما والموصي في إدبار عن الدنيا وإقبال على الآخرة

١) شرح أحاديث من صحيح مسلم –جـ١/٤٦٠.

وقد روي عن الشافعي نفيسة في شأن كلام من حضرته الوفاة وأن حاله ساعتها أقرب إلى التقوى (وللناس أحوال تكون أخبارهم فيها أصح وأحرى أن يحضرها التقوى منها في أخرى، ونيات ذوي النيات فيها أصح وفكرهم فيها أدوم وغفلتهم أقلّ، وتلك عند خوف الموت بالمرض والسفر وعند ذكره وغير تلك الحالات من الحالات المنبهة عن الغفلة) [١].

- والوصية – كذلك – تولي مضمون الكلام أهمية بالغة، لأن الموصي لا يوصي بأمر غير ذي بال ولا قيمة، خاصة أن الوصية تنشأ وتنجز لحظة الإحساس بقرب الأجل ودنوّ الرحيل، فتتزاحم المعاني الكريمة والأوامر الشريفة على ذهن الموصي، ويكون في حيرة من أمره، فيما يأخذ منها وفيما يدع! ولا شك أن ما يوصي به –وحالته هذه ـ هي من نفائس المعاني وكرائم الأمور.
- وفي هذه الصياغة "إني موصيكم" هدف إلى التأثير وضمان مسلك بليغ ناجع إلى نفْس الموصي وعقله، وكفالة القدر الأكبر من الانتفاع بمضمون الوصية، لاسيما حين يكون للموصي من السيادة والهيبة والحشمة ما لأبي عبيدة هنا في نفوس الجميع.

فنحن أمام موصٍ له كل هذا وزيادة عليه أنه موص خَبرَته الحياة، وأدرك الجمّ من أسرارها واطلع على المزيد من خباياه، ويحمل قلب محبٍّ مخلص لدينه وأمته وإخوانه [٢] فقدم تلك الوصية نبراسا هاديا تبلغ بالموصي له شاطئ النجاة.

- ورغبة منه – رضي الله عنه –في قبول الناس وصيته قبولا حسنا يصدّرها بهذا الإغراء الكريم: "إن قبلتموها لن تزالوا بخير" هكذا بـ "لن" المفيدة لتأبيد هذا الخير فيهم ما قاموا بهذه الوصية حق قيامها.
- وفي تعبيره بـ "إن الشرطية" دون غيرها من الأدوات –على كثرتها– دلالة على رغبته – رضي الله عنه – في عرض هذه الوصايا في سياق محبب للنفس محفز لها قبولها دون ما يشعر بالإلزام والفرض، وهو ما قد يفيده التعبير بغير"إن" لو تمّ، لذا عُدل إلى التعبير بـ "إن".
- كما أن التعبير بـ "إن" هنا ليفيد نُدرة الشرط أعني: أن الذين يلتفتون إلى ما تضمنته الوصية من: إقام الصلاة وما بعدها قليل ما هُم، ولذا استحقت هذه المعاني توصية أبي عبيدة إياهم بها، حثا لهم وتحريضا على الدخول في زمرة القائمين بهذه المعاني حق القيام.

---

١) الرسالة – الشافعي(ت:٢٠٤هـ) نشر: مكتبه الحلبي – مصر–ط: أولى – ١٣٥٨هـ/١٩٤٠م ت: أحمد شاكر – باب خبر الواحد.

٢) يدل عليه خطبة معاذ بعد موت أبي عبيدة (... إنكم فجعتم برجل ما أزعم والله أني أُريتُ في عباد الله قط أقلّ حقدا ولا أبرّ صدرا ولا أبعد غائلة ولا أشد حياء للعاقبة، ولا أنصح للعامة منه، فترحموا عليه) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية –ابن سالم مخلوف(ت:١٣٦٠هـ) –دار الكتب العلمية –لبنان – أولى –١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م –تعليق: عبد المجيد خيالي.

- وعودا إلى المعنى الأول من معاني هذه الوصية الكريمة، نجده – رضي الله عنه –يستفتحها بتوصيتهم بـ "أقيموا الصلاة" هكذا بصيغة الأمر.. دون " أن تقيموا الصلاة... " مثلا، جريا على ما كثر في البيان النبوي [١]، ولعل الحكمة من ابتداء الوصية بإقام الصلاة هي كون أهل الشام حديثي عهد بالإسلام، بدليل إمارته – رضي الله عنه –للجيوش الفاتحة الشام.

وقد يكون البدء بإقامة الصلاة هنا تأسيا واقتفاء لأثر وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم عند توديعه أمته: "الصلاة.. الصلاة"، فضلا عن كون الصلاة أول ما يحاسب عليه المرء يوم القيامة فإن صلحت صلح سائر عمله.

وقد اقتصرت الوصية على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان والصدقة" الزكاة" [٢] لكونها أعمدة الإسلام بعد شهادة التوحيد، وهي الحد الأدنى لقبول إسلام المرء، ولذا كان رده صلى الله عليه وسلم على الأعرابي الذي قال (لا أزيد عليها ولا أنقص: أفلح – وأبيه – إن صدق)[٣].

- وعُبر بالأمر الصريح في " أقيموا الصلاة.. آتوا الزكاة " وكان يمكن القول " أن تقيموا الصلاة.." لكون الأمر الصريح أخصر وأوجز، وهو الأنسب لمقام الوصية والتوديع هنا، فالحال أن الموصي يكون لديه مما يرغب أن يوصي به، ويخاف هجوم الأجل وفوات الوقت قبل أن يكمل وصيته، فالمقام يحتم عليه الإيجاز وتبليغ وصيته من أقرب طريق.
- ثم إن التعبير بالأمر الصريح هنا فيه إشارة لهم وحثّ على سرعة الامتثال والقيام من فورهم بالمأمور به دون تراخٍ أو تسويف.
- ولعل بناء الوصية على فعل الأمر الصريح هنا ناظر إلى بيان القرآن في هذا المقام، ومن شواهده قوله تعالى:(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) [٤] في غير موضع من آي الذكر الحكيم.
- والمعنى الثاني الذي قامت عليه هذه الوصية هو: النصح للأمراء والنهي عن غشهم " وانصحوا لأمرائكم ولا تغشوهم "، واقتران النصيحة للأمراء والنهي عن غشهم بما سبق من شرائع الإسلام وشعائره يخلع عليها ثوبا من الجلال ورفعة المنزلة لعلاقة المجاورة، وإنما ارتقت نصيحة الأمراء هذا المرتقى العالي، لأنهم رأس جسد الأمة وصلاح هذه الرأس صلاح للجسد كله فخيره عميم ونفعه عظيم، والعكس صحيح: فساد هذه الرأس

---

١) جمع الجوامع –١٩٢/١٣ – مسند علي بن أبي طالب.

٢) جريا على تعبير القرآن في ذات الشأن (إنما الصدقات للفقراء والمساكين...) التوبة ٦٠.

٣) البخاري: الأيمان والنذور –باب لا تحلفوا بآبائكم. حديث ٦٦٤٧، مسلم: الأيمان –باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى –٣/ ١٢٦٦ –حديث ١٦٤٦.

٤) البقرة ٤٣، ٨٣، ١١٠ –النساء ٧٧،١٠٣ –الحج ٧٨ –النور ٥٦ –المزمل ٢٠

"الأمراء" فساد وبيل على هذا الجسد ودبيب الفساد في الجسد مؤذن بزواله ونهايته نهاية ليس في الصغار ولا في الهوان ولا في الشر أفظع منها وأبشع.

- ووصيته –رضي الله عنه –هنا لهم بالنصح للأمراء هو عين قوله صلى الله عليه وسلم: (الدين النصيحة. قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) [١] وهو لبّ قول الشافعي وهو من هو –رضي الله عنه – (إن النصيحة لمن ولي أمرا من أمور الأمة فرض لا ينبغي تركه [٢].
- ويلاحظ مجيء قوله (انصحوا لأمرائكم) باللام دون (انصحوا أمراءكم) مثلا.. وبلاغة تعبيره هنا يفيد –كما يذكر الزمخشري – (وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة وأنها وقعت خالصة للمنصوح له، مقصودا بها جانبه لا غير) [٣].
- وتأتي الإضافة في قوله "لأمرائكم" لتدلّ على منزلة هؤلاء المنصوحين، وأنهم أمراؤكم والقائمون على أمركم، فهم أحق بنصيحتكم وأهلها.
- كما أن الإضافة فيها معنى إجارة هؤلاء الأمراء وخدمتهم عند رعيتهم، ففيها ترغيب وحث للرعية على نصيحة أمرائها وعدم الخوف أو الجبن عنها
- ولعل هذا المعنى هو ما حرض الصحابي أن يدوي بها في سمع التاريخ مخاطبا الفاروق عمر (لو ملتَّ عدلناك كما يعدل السهم في الثقاف) فبادله عمر حقا بحق (الحمد لله الذي جعلني في قوم إذا ملتُ عدلوني)[٤] ولذا عزَّتْ دولة الراشدين وسادتْ حين قامت على إحياء هذه الشعائر وغيرها.
- ثم تأتي جملة "ولا تغشوهم" المفهومة بمبدأ المخالفة من سابقتها "انصحوا لأمرائكم" للتحذير من غشهم، وأدنى غشٍ لهم هو ترك نصحهم وترتفع درجات غشهم وتعلو، من التزلف لهم، ومنافقتهم، وعدم امتثال أمرهم فيما لا معصية فيه للخالق، فضلا عن رفع التقارير المدلسة لهم المهدرة لحقوق البلاد والعباد وعلى ذلك فقس.
- فجاء النهي عن غشهم رغم فهمه ابتداء من "انصحوا لأمرائكم" لتبيان فظاعة غش الأمراء وقبح فعلته.
- وجملة "ولا تغشوهم" فيها معنى الدعوة إلى الصدق والإخلاص في النصيحة، فالصدق والإخلاص ينافيان الغشّ.

---

١) مسلم: الإيمان –بيان أن الدين النصيحة. حديث ٥٥، أبو داود: الأدب –باب في النصيحة –حديث ٤٩٤٤

٢) الرسالة –باب البيان الخامس –ص٨٤

٣) الكشاف –عند تفسير الآية ٦٢ من سورة الأعراف.

٤) سير أعلام النبلاء – ٢ /٣٧٢

- وجرت العادة أن الغش يكون في السِّلع كالغش في البيع والشراء، وعليه فإطلاق الغش هنا فيه استعارة تبعية في الفعل، حين شبه الكذب في النصيحة بالغش، ففي كل منهما خيانة، ثم حذف المشبه واستعير له المشبه به، واشتق منه قوله "تغشوهم" بمعنى تكذبوهم، وتأتي قيمة الاستعارة هنا من كونها جعلت الكذب في الكلمة أحد أبواب الغش لكونه خيانة، ومن غشّ المسلمين فليس منهم.
- والمعنى الثالث الذي دارت عليه الوصية هو: "التحذير من إلهاء الدنيا لهم" وذلك قوله "ولا تلهكم الدنيا"، وفي هذا النهي نَفَسٌ من أنفاس القرآن الكريم في مثل هذا المقام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ (١) وفي التحذير من إلهاء الدنيا هنا تمام المناسبة لمقام الوصية، الذي هو زُهد في الدنيا ومتاعها ورغبة في الآخرة ونعيمها، والموصي في حال إدبار من الدنيا وكأني به تُعرض عليه سنين عمره فيها فيجد نفسه كالقابض على الماء إلا من طاعة الله، فيقدّم وصيته وصية مُجَرّب خبر حقيقة الدنيا التي أخذت منه وأعطت، محذرا من بعده أن تُلهيه الدنيا كما ألهت من سبق، والسعيد من وعظ بغيره
- وربما كان التحذير من إلهاء الدنيا مناسبا من جهة أخرى لمقام الجهاد في سبيل الله، والذين هم قائمون به ساعتها في الشام من انفتاح الدنيا عليهم بغنائم الروم وسباياهم ومتاعهم، فلزم تحذيرهم من إلهاء الدنيا التي هي مظنة أن تفتح عليهم.
- وإن استقام هذا فلعله من نهر قوله صلى الله عليه وسلم: (فوَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عليكُمْ، ولكنِّي أَخْشَى أن تُبْسَطَ الدُّنْيا عليكُمْ كما بُسِطَتْ على مَنْ كَانَ قبلَكُم فَتَنافَسُوها كَما تَنافَسُوها فتُهْلِكَكُمْ كما أهلَكَتْهُم) (٢)
- وفي وصيته رضي الله عنه لهم بقوله: "لا تلهكم الدنيا" مجاز عقلي علاقته السببية فقد أسند الإلهاء إلى سببه "الدنيا" مبالغة في التحذير منه والتشنيع عليه.
- كما يلاحظ ـ كذلك ـ حذف الملهي عنه، ولعل سبب ذلك هو التعظيم والمبالغة، فيكون المعنى: لا تلهكم الدنيا عن أمر عظيم وشأن جليل لا يكتنه كنهه، ويجوز تفسير الملهي بكونه "لا تلهكم الدنيا عن العمل لمثل مصرعي هذا، أو عن طاعة ربكم والعمل ليوم معاده"، كما توحي به الجمل اللاحقة.
- ثم يسوق رضي الله عنه تعليلا حسنا وتوجيها رائقا لتحذيره إياهم من إلهاء الدنيا، أعني قوله "فإن امرءا لو عَمّرَ ألف حول ما كان له بُدّ من أن يصير إلى مصرعي هذا الذي ترون..."
- ويأتي التعبير بلفظة " امرءا " هنا لدلالتها على الجنس العام، ثم إن وقوعها في سياق الشرط أفاد العموم، فإن ملاقاة الموت وحضور الأجل مما لا يستثنى منه جنس مخلوق.

---

١) المنافقون ٩

٢) البخاري – الجزية – باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب – حديث ٢٩٨٨

- ويؤثر التعبير بـ "لو" في قوله "لو عَمَّر ألف حول..." للدلالة على أن تعمير أحدنا ألف حول عزيز، ووقوعه مستبعد إن لم يكن مستحيلا.
- ثم يأتي التعبير بـ "ألف" هنا للمبالغة والتناهي فيما يمكن أن يعمره المرء لو قدر له.
- ولعل في إيثار التعبير بلفظة "الحول" دون غيرها من مثل: السنة أو العام... مبالغة في التأكيد على الكمال والتمام وعدم النقصان من الألف حول شيئا،فإن المرء لو قدر له التعمير في الدنيا ألف حول متتابعة كاملة غير منقوصة، فلا مفر من بلوغه مصيره المقدر أزلا على كل مخلوق ولابد من شهوده أجله لا مناص، ذلك أن الحول – كما يذكر الطاهر بن عاشور –(مشتق من تحول دورة القمر أو الشمس في فلكه من مبدأ مصطلح عليه، إلى أن يرجع إلى السمت الذي ابتدأ منه، فتلك المدة التي ما بين المبدأ والمرجع تسمى حولا)[1] وفي التعبير به هنا ـ أيضا ـ تذكير للعبد بأمر مبتدأه ومنتهاه، كما هو الشأن في دورة القمر أو الشمس من المبدأ إلى الرجعى
- ولاحظ معي قوله – رضي الله عنه – ".. مصرعي هذا – الذي ترون" وكان بالوسع التعبير بغيرهما نحو: "ما كان له بُدّ من الموت" مثلا، وكان يمكن له الاستغناء عن جملة الصلة الواقعة صفة: "هذا الذي ترون" مكتفيا بقوله "مصرعي هذا".
- لكن تعبيره هنا – رضي الله عنه –أبلغ في حملهم على الانتفاع بوصيته لهم، وقبولها قبولا حسنا – خاصة تحذيره من إلهاء الدنيا – فقد عاينوا مصرعه وحضور أجله بأم أعينهم وما يصاحب مثل هذه المواقف والمشاهد من تأثر تنخلع معه النفوس، وتحقر معه الدنيا بغرورها، وفي الحديث:(ليس الخبر كالمعاينة) [2].
- ثم تأتي جملة "إن الله كتب الموت على بني آدم..." توطئة للجملة التي أراها هي معقد المعنى هنا وهي "وأكيسهم أطوعهم لربه.. وأعملهم ليوم معاده"، فقد عاود رضي الله عنه تذكيرهم بالحق المر وهو جريان الكتاب بالموت على الخلائق، حاشدا الكثير من التوكيدات على هذه الحقيقة التي هي في غنى عن كل هذه المؤكدات لولا غفلة القلب وإلهاء الدنيا، فافتتحت الجملة بـ "إنَّ" وذيلت بالجملة الاسمية "فهم ميتون" المفيدة القطعية والثبوت، فهو قضاء الله النافذ في خلقه.
- وأحسب أن التركيب جاء هنا كذلك لتهيئة النفوس ولفت الانتباه إلى أس المعنى الذي يبتغيه أبو عبيدة رضي الله عنه هنا وهو: دلالتهم على أكيس الخلق وأعملهم وأفطنهم لمثل هذا فجاءت جملة:

"أكيسهم أطوعهم لربه.. وأعملهم ليوم معاده"

---

١) التحرير والتنوير – الطاهر بن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ) ط: الدار التونسية للنشر –١٩٨٤ –/٤٢٩–عند تفسير قوله تعالى (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين) البقرة ٢٣٣

٢) الصحيحين –كتاب التفسير – تفسير: ليس الخبر كالمعاينة، مسند أحمد (٢١٥/١ –رقم ١٨٤٢

هكذا بصيغة التفضيل، التي أشم منها أنه رضي الله عنه لا يرضى لهم مجرد الطاعة لا ومجرد العمل ليوم المعاد، بل يحضهم على أن يكونوا الأطوع وأن يكونوا الأكثر عملا، هكذا بصيغة المفاعلة التي لا تقتضي الاشتراك مع الغير في الفعل فحسب، بل تنظر إلى لزيادة عليهم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وحُقَّ لمثل هؤلاء الخيرة أن يكونوا كذلك وهم أحق بها وأجدر.

- وتأتي جملة "إن الله كتب الموت على بني آدم فهم ميتون" تقريرا لقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) [1].
- ثم نصل إلى المعنى الأخير الذي قامت عليه هذه الوصية الجليلة وهو: "استخلاف معاذ بن جبل على الصلاة بالناس" وحين نردُّ هذا – وهو آخر الوصية –إلى أولها أعني قوله:" أقيموا الصلاة " سنرى إحكام النسج، وردَّ آخر الكلام على أوله، سنرى الصلاة وهي تحيط بأول الوصية وآخرها. فاللهم أعنا على الصلاة وأحينا عليها، ووفقنا إلى إقامتها، وأحسن بها الختام.

الخاتمة:

حمدا لله على المبتدا والمنتهى، وصلاة وسلاما على نبينا المجتبى، ورضي اللهم عن عترته الأبرار وصحابته الأخيار ومن تبعهم بإحسان

وبعد هذه السياحة الماتعة في رحاب بلاغة أمين الأمة "أبي عبيدة بن الجراح" رضي الله عنه، وقبل إلقاء عصا الترحال يطيب لي إيجاز أهم نتائج الدراسة وتوصياتها:

- كثر استهلال كلامه – رضي الله عنه –بالتنبيه والنداء، فكأن التنبيه والنداء طرقة تطرق العقل وتجمع شتات النفس، فتقبل على مضمون ما يلقى عليها قبولا حسنا، وهذه سمت الكلام العالي.
- كما شاع في بيانه ـ رضي الله عنه ـ تأثره ببياني القرآن والسنة، وكثرة اقتباسه منهما، ولا عجب فهم الجيل الذي تنزل فيهم القرآن الكريم وتلقوا بيان النبوة كفاحا، وكانوا عليهما شهودا.
- كثر في بيانه –رضي الله عنه – إيراد الحجة وسوق الدليل على مضمون كلامه، مبالغة منه في حمل المخاطب على الاقتناع والقبول الحسن، ومن شواهد ذلك في كلامه قوله عن أبي بكر (كيف أصلي بين يدي رجل أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤمنا حتى قُبض) وقوله لعمر رضي الله عنهما (.. فحللني من عزيمتك، فإني في جند من أجناد المسلمين، لا أرغب بنفسي عنهم)
- جرى بعض كلامه– رضي الله عنه – مجرى الحكم والأمثال، لجودة سبكه وقوة نظمه، فصار من النمط العالي ومن شواهده (يكفيك ما يبلغك المقيل) (ألا رب مبيض لثيابه مدنس لدينه) فليس من الكلام المعجون بعضه ببعض.

---

١) آل عمران ١٨٥

- كثر في بيانه –رضي الله عنه –التوكيدات وفي رأسها أسلوب القصر من طريق النفي والاستثناء، وجاء ذلك في المقامات عالية النبرة بالغة التركيز.
- شاع في بيانه –رضي الله عنه– العديد من الأساليب البيانية ما بين الكناية والاستعارة والمجاز، والكثير من صور البديع منوعة ما بين طباق ومبالغة وسجع وحسن التعليل، وفي اجتماع هذه الفنون تلوين للكلام وتنشيط للسامع، وتهييج للفكر وأداء المعنى بصور مختلفة.
- ومما زاد تلك الأساليب جمال مجيؤها غير متكلفة، وأن لها أثرا في الأسلوب اقتضاه المقام.
- برز في بيانه سمة تناسل الجمل بعضها من بعض، (أرجو أن يبارك الله فيها فإنه إذا بارك في القليل كان كثيرا)

خير البيان ما أفصح عن سمات قائله، فالرجل هو الأسلوب كما يقولون، وعليه فقد:

- أبانت هذه الدراسة عن جانب من شخصيته رضي الله عنه وهو" ردُّ الأمر كله لله، واستحضار مهابته ومراقبته جل جلاله في كل موقف" فاستشعار معية الله ومراقبته هو الحاضر الذي لا يغيب في نفس أبي عبيدة، وذلك مما لا تخطئه عين بصير.
- كما أظهرتْ الدراسة ميزانَه – رضي الله عنه – الأمورَ بميزان القرآن والتحاكم إليه في تقرير الأمور.
- كذلك أفصح بيانه عما انطوت عليه شخصية سيدنا أبي عبيدة من نكران الذات وهضم النفس ومعرفته نفسه حق المعرفة وبصره بها وقيامه عليها.
- أسفر بيانه –رضي الله عنه . عن جانب من شخصيته وهو "زهده في الدنيا ومتاعها ورقة حاله"، ومن شواهده قوله لعمر –رضي الله عنهما – (إنك ستعصر عينيك عليَّ يا أمير المؤمنين).
- أفصح بيانه – رضي الله عنه – عن بعض سماته الخلقية مثل: سلامة الصدر وصفاء الطوية، وبذل الودّ، وكراهية إيذاء الغير، فضلا عن إضعاف أمره (كرهت أن أكسرك).
- أبان أسلوبه عن علوّ فقهه وبالغ حكمته، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا (..وأنت بإزاء عدو).
- كشف بيانه عن حُسن معرفته بأقدار الصحابة خاصة –رضي الله عنهم – وعلوّ تأدبه في الحديث عنهم وإليهم، ومن شواهده (إن مات عمر رقَّ الإسلام) وإيثاره التعبير بجمع القلة في حديثه إليهم (ادرؤوا السيئات بالحسنات) صيانة لمقامهم وتأدبا معهم، فهم عن السيئات أبعد رضي الله عنهم جميعا.
- توشح بيانه وشاح العزة وارتفاع النبرة حالة مخاطبته خصومه من أعداء الدين، متحققا بوصف الله الصحابة رضوان الله عليهم (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) [1]، (أشداء على الكفار رحماء بينهم) [2] وكتابه

---

١) المائدة ٥٤

٢) الفتح ٢٩

رضي الله عنه إلى أهل بعلبك خير شاهد على ذلك، وقليل من تتحقق تلك السمة في بيانهم، أن تراه في جانب (إخوانه وأصحابه وأهل الود) أرقَّ من النسيم، وفي جانب خصومه من أعداء الله ورسوله كالصاعقة الحارقة لا تبقي ولا تذر.

- كما أفصح بيانه عن تجرده وإخلاصه وتمحيضه النصح لولاة أمره خاصة، فيؤثر التعبير بـ "انصحوا امراءكم "على" انصحوا لأمرائكم"، فضلا عن توصيته الناس عند موته بالسمع والطاعة لولاة أمورهم.
- وفي نهاية المطاف نقول: لله درُّ عمر – رضي الله عنه – حين تمنى ملأ بيته رجالا مثل أبي عبيدة.

النتائج:

أسفرت هذه الدراسة عن جملة من البحوث البلاغية التي تستنهض الباحثين القيام بحقها وهي:

- تصاعد المعاني في النفس ودور البيان في الكشف عنها.
- لام الجحود ومقاماتها البلاغية في التنزيل الحكيم.
- وصايا المودعين ودراسة معانيها ومبانيها.

ثبت المصادر والمراجع:

أُسد الغابة ابن الأثير(ت:٦٣٠هـ) نشر: دار الفكر –بيروت ـ نشر: ١٤٠٩هـ –١٩٨٩م.

الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء – أبو الربيع سليمان الكلاعي الحميري (ت:٦٣٤) نشر دار الكتب العلمية –بيروت –أولى ١٤٢٠هـ.

البداية والنهاية– ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) نشر: دار الفكر – ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م.

بدائع الفوائد –ابن قيم الجوزية (ت:٧٥١هـ) –نشر: دار الكتاب العربي –بيروت.

البلاغة القرآنية في نكت الرماني – عبد القاهر الحمراني –مكتبة عيداء – ط أولى.

تاريخ الطبري (ت: ٣١٠هـ) دار الكتب العلمية – بيروت أولى ـ ١٤٠٧هـ.

تاريخ دمشق –ابن عساكر (ت: ٥٧١هـ) الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع عام النشر: ١٤١٥هـ –١٩٩٥م تحقيق المحقق: عمرو بن غرامة العمروي.

التحرير والتنوير –الطاهر بن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ) ط: الدار التونسية للنشر.

التعريفات للشريف الجرجاني (ت: ٨١٦هـ) ت: جماعة من العلماء –نشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان – ط: أولى١٤٠٣هـ –١٩٨٣م.

جمع الجوامع للسيوطي – دار الكتب العلمية – بيروت –تعليق خالد شبل.

الجنى الداني في حروف المعاني –المرادي (ت:٧٤٩هـ) ت: د فخر الدين قباوة – أ محمد نديم فاضل – دار الكتب العلمية ـ بيروت.

حلية الأولياء –أبي نعيم الأصبهاني (ت:٤٣٠هـ) – نسخة مكتبة الخانجي ودار الفكر المصورة عن دار السعادة بمصر.

الحيوان للجاحظ – مكتبة مصطفى الباب الحلبي – تحقيق عبد السلام هارون – ط ثانية.

خزانة الأدب – البغدادي (ت: ١٠٩٣هـ) تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة – ط: الرابعة، ١٤١٨ هـ –١٩٩٧م.

الداء والدواء – ابن قيم الجوزية (ت:٧٥١هـ) ط: مجمع الفقه الإسلامي بجدة ـ ١٤٢٩هـ –ت: محمد أجمل الإصلاحي.

دلائل الإعجاز – مكتبة الخانجي – ت: محمود شاكر.

دلائل النبوة – أبو نعيم(٤٣٠هـ) ط. النفائس ـ بيروت –١٩٨٦م – ت: محمد رواس قلعه جي – عبد البر عباس.

ديوان أبي العلاء (سقط الزند) – ط دار صادر –بيروت – ١٩٥٧م.

ديوان الكميت الأسدي – دار صادر– ط أولى – سنة ٢٠٠٠م – تحقيق د محمد نبيل طريفي.

ديوان عبد الله بن رواحة –دار العلوم للطباعة – ١٩٨٢م ـ ت: د وليد قصاب.

الرسالة –الشافعي(ت:٢٠٤هـ) نشر: مكتبه الحلبي – مصر–ط: أولى – ١٣٥٨هـ/١٩٤٠م ت: أحمد شاكر.

الرياض النضرة في مناقب العشرة – أبو العباس محب الدين الطبري (ت: ٦٩٤هـ) نشر: دار الكتب العلمية – ط: الثانية.

الزهد –ابن المبارك ـ ط: دار الكتب العلمية –تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.

الزهد – أبي داود (ت: ٢٧٥هـ) –دار المشكاة للنشر والتوزيع – ١٩٩٣م –ت: ياسر إبراهيم –غنيم عباس.

الزهد – أحمد بن حنبل – دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩ م – تخريج محمد عبد السلام شاهين.

سنن ابن ماجة (ت٢٧٥ هـ) نشر: دار عيسى الحلبي –تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

سنن الترمذي (ت: ٢٧٩هـ) تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرون ـ ط: مصطفى البابي الحلبي ـ ثانية،١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م.

سير أعلام النبلاء – الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) نشر: دار الحديث-القاهرة الطبعة: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

السيرة النبوية لابن هشام (ت:٢١٣هـ) ط: مصطفى الحلبي –ط: الثانية، ١٣٧٥هـ ١٩٥٥ م تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي.

سيرة عمر بن عبد العزيز– ابن عبد الحكم (ت٢١٤ هـ) عالم الكتب – بيروت – لبنان – ط سادسة ١٩٨٤م.

شرح أحاديث من صحيح مسلم – د محمد أبو موسى ـ مكتبة وهبة –القاهرة –ط: أولى –٢٠١٥م

شرح الخطيب التبريزي على قصيدة (بانت سعاد) –تحقيق: عبد الرحيم الجمل ـ مكتبة الآداب ـ سنة ٢٠٠٣م.

شرح المعلقات السبع – الزَّوْزَني، أبو عبد الله (ت:٤٨٦هـ) نشر: دار احياء التراث العربي –ط أولى ١٤٢٣هـ –٢٠٠٢م.

شعب الإيمان – البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) – دار الكتب العلمية – بيروت – ط: الأولى، ١٤١٠هـ – ت: محمد السعيد بسيوني زغلول.

شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح – ابن مالك – تحقيق د. طه محسن – مكتبة ابن تيمية – أولى ١٤٠٥هـ.

صحيح مسلم (ت: ٢٦١هـ) نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ـ ت: محمد فؤاد عبد الباقي.

الطبقات الكبرى–ابن سعد – (ت: ٢٣٠هـ) الناشر: دار الكتب العلمية –بيروت الطبعة: الأولى ١٤١٠ هـ –١٩٩٠م تحقيق: محمد عبد القادر عطا.

العقد الفريد – ابن عبد ربه الأندلسي (ت:٣٢٨ هـ) دار الكتب العلمية ـ ط أولى ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م – ت: مفيد قميحة.

غذاء الألباب للسفاريني (ت: ١١٨٨هـ) دار الكتب العلمية – لبنان – ط أولى ١٩٩٦م – تصحيح محمد الخالدي.

فتح الباري شرح صحيح البخاري – ابن رجب (ت: ٧٩٥هـ) ط: دار ابن الجوزي –أولى – ١٩٩٦م – تحقيق: طارق عوض الله محمد.

فتوح البلدان – البَلَاذُري (ت ٢٧٩هـ) الناشر: دار ومكتبة الهلال –بيروت –١٩٨٨م.

فتوح الشام –الواقدي (ت: ٢٠٧هـ) نشر: دار الكتب العلمية – ط أولى – ١٤١٧هـ –١٩٩٧.

الكامل ابن الأثير (ت:٦٣٠هـ) نشر: دار الكتاب العربي، بيروت –لبنان – ط: أولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م –ت: عمر عبد السلام تدمري.

الكتاب . سيبويه (ت: ١٨٠هـ) ت: عبد السلام هارون –مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الثالثة، ١٤٠٨ هـ –١٩٨٨م.

كنز العمال – المتقي الهندي (ت: ٩٧٥هـ) نشر: مؤسسة الرسالة – ط: الخامسة، ت: بكري حياني – صفوة السقا.

المجازات النبوية –الشريف الرضي –نشر مكتبة بصيرتي – تحقيق د طه الزيتي – بدون تاريخ.

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد – الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ) ت: حسام الدين القدسي–نشر: مكتبة القدسي، القاهرة: ١٤١٤هـ ١٩٩٤ م – ٢٢/٤.

المستدرك على الصحيحين – النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ) دار الكتب العلمية — بيروت – ط: أولى١٤١١ – ١٩٩٠ م تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ) نشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: ط أولى١٤٢١ هـ –٢٠٠١ م – تحقيق: شعيب الأرنؤوط –عادل مرشد، وآخرون إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي.

مصنف ابن أبي شيبة (ت: ٢٣٥ هـ) مكتبة الرشد – ط. أولى ١٤٠٩هـ –ت: كمال الحوت– كتاب الزهد – كلام أبي عبيدة رضي الله عنه.

معجم شواهد العربية – عبد السلام هارون (ت ١٤٠٨هـ) نشر: مكتبة الخانجي – ثالثة – ٢٠٠٢م – ٣٩٨/١.

المفضليات – المفضل الضبي (ت:١٦٨هـ) ط: دار المعارف – سادسة – ت: أحمد شاكر –عبد السلام هارون.

مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – ابن الجوزي(ت:٥٩٧هـ) – نشر: دار ابن خلدون – ١٩٩٦هـ

المنتظم في تاريخ الأمم والملوك – أبو الفرج الجوزي (ت:٥٩٧ هـ) – دار الكتب العلمية، بيروت – ط: الأولى، ١٤١٢ هـ –١٩٩٢ م تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا.

p-ISSN: 1652 - 7189 e-ISSN: 1658 - 7472 Issue No.: 28 ... Muharram 1443 H – September 2021

Albaha University Journal of Human Sciences

Periodical - Academic - Refereed

Published by Albaha University

دار المنار للطباعة 017 7223212

Email: buj@bu.edu.sa https://portal.bu.edu.sa/ar/web/bujhs